علي الطنطاوي

بغداد

ذكريات ومشاهدات



دار المنارة


بغداد
ذكريات ومشاهدات


بسم الله الرحمن الرحيم

علي الطنطاوي

بغداد

ذكريات ومشاهدات

طبعة جديدة

راجعها وصحّحها وعلّق عليها حفيد المؤلف

مجاهد مأمون ديرانية

دار المنارة

للنشر والتوزيع

الطبعة الخامسة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية
هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨ المستودع ٦٦٧٥٨٦٤

مقدمة الطبعة الثانية

جئت بغداد وكتبت عنها هذه المقالات التي تقرؤون بعضها في هذا الكتاب وأنا شاب دون الثلاثين، وأكتب مقدمة هذه الطبعة من الكتاب الآن وأنا شيخ يخطو إلى التسعين. كنت أرمي بهمتي إلى الإمام أعيش في المستقبل، فنفدت الهمّة، فغدوت أعيش في الماضي. كان غذاء قلبي الآمال، فأمسى لا يجد إلاّ الذكريات.

ما تقرؤونه في هذا الكتاب كُتب قبل أكثر من خمسين سنة، مَن كان يومئذ ابن عشر سنين صار الآن فوق الستين، فمَن لم يبلغ هذه السن فلا يَحكم عليه بذوق زمانه بل بميزان ذلك الزمان، فإذا لم تدركوه فسلوا عنه مَن أدركه وعاش فيه.

إن وجدتم في الكتاب -مثلاً- ثناء على الملك غازي أو رثاء له، وإن لمستم الحرارة في ذلك الرثاء وأنه كلمات مازجها البكاء، فلا تظنوا أني من جماعة غازي ولا أني من أشياعه، وما أحسب أنه بقي لغازي اليوم جماعة أو أشياع. وما لي صلة بغازي ولا بغيره من الحكام، وإنما كنت أصوّر ما أراه وأسمعه، كما يصنع كل أديب وصاحب قلم فُطر على البذل وعلى المشاركة، فهو يبسط عواطفه، ويعرض للناس مسرّاته وأحزانه وآماله وآلامه، لا يرضى حتى يشاركوه فيها. ولو سألتم من بقي من ذلك الزمان لخبّركم أن

الذي كتبته يوم مات غازي وتقرؤونه في هذا الكتاب كان تصويراً صادقاً للواقع ليس فيه مبالغة ولا تهويل، وهل يُطلَب من الأديب إلا أن يصوّر ما وقع؟

* * *

ليس هذا الكتاب عن بغداد الأمس البعيد، يوم كانت بغداد حاضرة الدنيا وعاصمة الأرض، وكانت أعزّ وأجلّ مدائنها، وكان الخليفة الذي يقيم فيها أكبرَ أولئك الملوك ودولتُه أقوى تلك الدول. ولا عن بغداد اليوم التي وثبت تشقّ إلى العلياء طريقها وتستدرك ما فاتها وتعيد بناء مجدها. بل عن بغداد الأمس القريب، بغداد التي كانت قبل خمسين سنة؛ بغداد التي كنت أدرّس فيها، في الثانوية المركزية ثم في الغربية، وفي دار العلوم الشرعية في الأعظمية التي صارت كلية الشريعة، وكنت أحاضر في دار المعلمين العالية، وكان ذلك سنة ١٩٣٦.

بغداد التي عرفتها صارت أيضاً من التاريخ. صارت حديثاً على ألسنة الشيوخ والعجائز، صارت ذكرى. لم يكن فيها إلا شارع واحد على جانبيه عمارات ما ترتفع عن الطبقة الثالثة، يمتد من الميدان، ميدان باب المعظّم، إلى قريب الباب الشرقي، يمرّ على الحيدر خانة وجامع سيد سلطان علي، وأكثر المعاهد والمتاجر كلها في هذا الشارع. وفي أواخر أيامي في بغداد باشروا بفتح شارع آخر، هو شارع غازي.

* * *

وكنت أحب أن أمشي على رجليّ في كل بلد أدخلها،

فكنت أخرج من الثانوية المركزية إلى آخر شارع الرشيد عند الباب الشرقي، وما بعد الباب الشرقي إلا شارع على امتداده لم يكن قد عُبِّد يومئذ ولا سُكِن، أظن أنّ اسمه شارع أبي نواس. فكنا نؤمّه بعض العشايا، فنجلس عنده مجلساً ما في المجالس أجمل منه منظراً، ونأكل طعاماً ما في المآكل أشهى منه مَطْعماً؛ المجلس عند دجلة ساعة الأصيل، والطعام هو السمك المسقوف (المزقوف)، يُخرج لك الصيادُ السمكةَ من الماء وهي حيّة تضطرب في الشبكة، فينظفها ويضعها على الجمر المتوقّد حتى تكون سقفاً له، ثم يأتيك بصينية عليها أنواع من الخضر، ممّا أعرف كالبقدونس والكرّاث وما لا أعرف، ويأتيك بالخبز ساخناً قد خُبز الآن. ولكل بلد أكلة شعبية، وهذه أكلة بغداد التي يقول المصريون عن مثلها: "إنك تستطيبها حتى تأكل أصابعك بعدها". ولو صحّ هذا الكلام ما بقيت أصبع في كفّ إنسان!

ولم يكن في شارع الرشيد -على طوله- بناء يعلو أكثر من ثلاث طبقات، لأن الأرض كما قالوا رخوة لا تحتمل البناء العالي. وكنّا نقف أمام دجلة فنرى الماء عند الفيضان، لولا هذه السدود من التراب القائمة على جانبَي النهر لأوشك أن يصل إلى صدورنا. وأوّل بناء عال شُيّد على أيامنا في بغداد بناء لتاجر أذكر أن اسمه «حسّو»، حفظت الاسم لغرابته، أقامه -كما قالوا- على قاعدة واسعة من الأبرق (أي الإسمنت المسلح).

وكنت أمشي أحياناً وسط الأسواق، أخرج من الثانوية المركزية فأمرّ على سوق السراي، حيث تباع الكتب وحيث أكثر المكتبات، ثم تتبدل البضائع فيكون لكلّ تجارة سوق

خاصّة بها. ومنها سوق كنت أقف فيه فأحسّ أني في حديقة زهر متعدد الألوان، فيه أقمشة حريرية ملونة، وقريب منه سوق البلّور والتحف، والأنوار الساطعة القوية تبرق من خلال بلّوره وتحفه، فيكون لذلك منظر بهيج.

والأسواق كلها مسقوفة، لا يحسّ مَن فيها حرّ الشمس ولا يجد بلل المطر، حتى أنتهي إلى سوق الفضة حيث أجد عمّالاً بلحى طويلة جداً. أصحاب هذه اللحى يسميهم الناس «الصبّة»، ولعلّ أصل الكلمة الصابئة، فهم ليسوا مسلمين ولا عرباً، ولكنهم ينفردون بمهنة لا يعرفها في الدنيا غيرهم، يتوارثونها بينهم لا يعلّمونها إلاّ أبناءهم، هي الكتابة والنقش على الفضة؛ تعطيهم ما شئت من صورة أو كلام، فتأتي من الغد فتأخذ ذلك منقوشاً على حِلية أو على آنية من الفضة. والكتابة لا تمحى أبداً، على دقّة في الصناعة وجمال في الشكل.

* * *

ومن أعجب ما وقع لي أني نزلت من الأعظمية، أنا وأنور العطار، صديق العمر رحمة الله عليه. وكنا لا نكاد نفترق، فلا يرانا الناس إلا معاً، حتى إنهم ليخلطون بيننا فيقولون علي العطار وأنور الطنطاوي. نزلنا مرّة مشاة على أقدامنا، فلم نسلك الشارع العام ولكن مشينا على شطّ دجلة، فكانت تعترضنا حواجز بين البساتين والمزارع فنتخطاها أو ندور حولها، حتى اقتربنا من البلاط (أي من قصر الملك غازي). ولا تحسبوه قصراً مثل قصر عابدين في مصر ولا قصر يلدز في إسطنبول، بل هو بناء عادي

لعلّ في بيوت الموسرين ما هو أوسع منه سعة وأجمل جمالاً. فلما اقتربنا منه، ونحن نتحدث لا نلقي بالاً لما حولنا، فاجأنا جنديٌّ وسلاحه بيده مَنشوراً يزجرنا لأننا دخلنا حدود البلاط بغير إذن.

وليس هذا العجيب، ولكنّ العجيب أنني كنت أروي القصة فأجمّلها، وأفلفلها وأعصفرها وأزيد فيها، على اعتبار أنها قصة أدبية يجوز في مثلها التحوير والتغيير لا على أنها رواية تاريخية، فإذا كان المجلس القادم أخذ أنور رحمه الله القصة بزياداتي، وفلفلها مرة ثانية وجمّلها وزاد فيها، فآخذ أنا الطبعة الأخيرة منها، أي رواية أنور... ولا يزال كل واحد منّا يزيد فيها، حتى إن رئيس تحرير مجلة «المعلم العربي» في دمشق أجرى مرة مقابلة معي نشرها، فسألني عن هذه القصة، فأقسمت له أنّني لم أعد أدري ما وقع، لأن الحقيقة اختلطت فيها بهذه الزيادات حتى إنّني لم أعد أذكر أصلها[1].

* * *

بغداد التي عرفتها كانت تنام على الشطّين، بعضها في الكَرخ وأكثرها في الرُّصَافة، رأسها في باب المعظّم ورجلاها في الباب الشرقي، أو بالعكس، فما أبالي أين الرأس وأين القدمان ما دام الفراش ممدوداً ومداه محدوداً.

لم يكن في طريق الأعظمية إلاّ البلاط الملكي، ثم أقامت الأوقاف -على ما أذكر- أمامه دُوَيرات (فيلاّت صغيرة) جعلوها

---

(١) سيأتي ذكر هذا الخبر ببعض التفصيل في مقالة «من ذكريات بغداد» في هذا الكتاب (مجاهد).

ذات ألوان مختلفات، أو أذنوا للناس بإقامتها على أن يسكنوها مدّة معلومة ثم تؤول إلى إدارة الأوقاف، لأن تلك الأرض كانت وقفاً. وليس بعد البلاط ولا قبله منازل ولا بنيان، حتى نصل إلى أوائل دور الأعظمية، فينادي سائق الحافلة (الباص): «رأس الأحواش»، أي أوائل البيوت، لينزل مَن شاء من الرّكاب.

أما الحافلات (الباصات) فهي صناديق كبيرة من الحديد، فيها كراسي ضيّقة متراصّة، ما فيها من وسائل الراحة شيء. وقد خُبّرت أن الحافلات التي تحمل الناس الآن في بغداد هي التي يحملهم مثلُها في لندن، لا تختلف عنها، وأن منها ما هو بطبقتين، وعلمت أن عند أمانة العاصمة متحفاً أو معرضاً يعرضون فيه تطور سيارات النقل العام، من عهد تلك الصناديق التي أعرفها والتي كنت أزاحم الناس لأتخذ لي كرسياً فيها، إلى ما انتهت إليه اليوم.

وقالوا: إن بغداد اليوم أكبر مساحة وأكثر امتداداً من بغداد الرشيد والمأمون، وقالوا: إن طولها زاد على خمسين كيلاً، وإن الجسر الذي كان على عهدي يقوم على عوّامات (فإذا زاد الماء صار كالتل، وإن قلّ صار كالوادي، ويتحرك أبداً بحركة الماء)، قالوا إنه صار الآن مبنياً مثل جسور المدن الكبرى، يقوم على دعائم راسيات في الأرض، وإن بدل الجسرين اللذين كنت أعرفهما صار فيها جسور كثيرة. وقالوا: إن بغداد ذات الشارع الواحد صار فيها عشرات وعشرات من الشوارع التي تمشي فيها السيارات، وتقوم على جانبيها ضِخَام العمارات، فهل هذا الذي قالوه حقيقة أم هو من باب الدعايات؟

وأشتهي أحياناً أن أرى بغداد بعد طول الغياب، ثم أفكر ما الذي أجده اليوم من بغداد التي عرفتها؟ من الذي سألقاه ممّن كنت ألقى يومئذ فأسعد بلقياه؟ هل أجد الشيخ رضا الشبيبي الذي بسط عليّ جناحيه، فدفع عنّي الأذى يوم تحالف عليّ إخوة كرام إثر ما كان بيني وبين المفتش؟[1] هل أجد العالم الأديب الذي كان يعمل معه: الأستاذ طه الراوي؟ هل أجد العالم الكبير الشيخ المعمَّر الشيخ إبراهيم الراوي؟ ألا يزال في جامع سيد سلطان علي يستقبل كلّ من دخل عليه، ويلزمه أن يأكل من طعامه ولو لم يكن الوقت وقت طعام؟

هل أزور الأخ الذي كانت له في قلبي منزلة ليس لأحد مثلها، والذي كان لي أكثر من الأخ الشقيق، الأخ الأكبر وإن كان لا يزيد عنّي في العمر إلا خمس سنين، الذي كان سبب سفري إلى العراق، والذي كان مكتبه في وزارة المعارف مَغْداي أو مَراحي كلّ يوم.

شوقي يقول:

قد يهون العمرُ إلا ساعةً — وتهون الأرضُ إلا موضعاً

وقديماً قالوا:

وليس على الله بمستنكَرٍ — أن يجمع العالَمَ في واحِدِ

وأنا حينما أتذكّر الآن أيامي في بغداد أراها على طولها،

(١) القصة طويلة، وتجدون تفصيلاتها في الحلقة ١٠١ من «ذكريات علي الطنطاوي» في الجزء الرابع (مجاهد).

وأرى بغداد على سعتها، قد جمّعت في غرفة صغيرة من وزارة المعارف، التقى فيها الزمان والمكان، وصُبّت ذكرياتي كلها فيها والتقت بين جدرانها، كما تلتقي سيول الجبل تحملها الشِّعَاب إلى قرارة الوادي، وهي غرفة الأستاذ بهجة الأثري. مَن كان يعرفه من القرّاء فليحمل إليه سلامي، وليخبره أن ثلاثاً وخمسين سنة لم تَمحُ من نفسي الاعتراف بفضله.

وفي مصر غرفة مثلها أو أصغر منها، هي غرفة الأستاذ الزيّات رحمة الله عليه، في إدارة «الرسالة» عند ميدان عابدين. حيّا الله الأثري وأجزل الرحمة للزيّات.

كنت آوي إلى غرفة الأثري كلما ضربتني أمواج الحياة، فأجد الجبل المنيع الذي لا تصل هذه الأمواج لمَن يأوي إليه. عرفته في دمشق، وفي لبنان، وفي العراق، فما عرفت فيه إلاّ الأخ الوفيّ والصديق الصفيّ، الشاعر الراوي الكاتب البليغ، الذي يكفيه أنه ساجل أمام البلاغة الزيّات في قصته «وضّاح اليمن»، فما كان أسلوبه دون أسلوب الزيّات ولا بيانُه أقلَّ من بيانه، وإن كان الحق فيما قال الأثري لا فيما قصّ الزيّات.

هل أجد إن ذهبت إلى بغداد زملائي الذي جاؤوا العراق معي، أو الذين جمعني بهم العراق: أنور العطار، عبد المنعم خلاّف، أحمد مظهر العظمة، أكرم زعيتر، صالح عقيل، كامل عيّاد، حيدر الركابي؟ يا أسفاه! لم يبقَ منهم إلا الأستاذ أكرم، والأستاذ خلاّف، وأنا. هل أجد مَن جاء بعدي لمّا فارقت العراق إلى بيروت، الدكتور زكي مبارك؟ رحم الله من مات منهم وأولى الخير مَن بقي.

هل أجد الشيوخ الأجلّة الذين جمعني بهم التدريس في دار العلوم الشرعية، الملحقة بمسجد الإمام الأعظم، الذي سُميّت باسمه ونُسبت إليه مدينة الأعظمية؟ هل أجد العالم الغني الزاهد الشيخ أمجد الزّهاوي، والعالم الحقوقيّ صاحب خزانة الكتب الكبيرة الحاج حمدي الأعظمي، والمفتي الصالح الشيخ قاسم القيسي، ومدير الدار الأستاذ الشيخ المعمَّر فهمي المدرّس؟ لقد كنت وحدي الشاب بينهم وكانوا كلهم أكبر مني سنّاً.

خبروني، ألا تزال غرفة الأثري في الوزارة حافلة بالصفوة المختارة من أهل العلم والأدب؟ ألا تزال المكتبة في دار الحاج حمدي موئلَ العلماء والأفاضل؟ ألا تزال في دار الشيخ قاسم على شط دجلة تلك المجالس التي كانت لروحي رَوْحاً ولقلبي طرباً ولذهني غنى وخصباً، وكنت أطرح فيها وفي أمثالها رداء التكلّف وأطلق نفسي على سجيتها وأبدي كلّ ما فيها؟

وكذلك كنت أصنع مع أمثال هؤلاء، كالأستاذ كرد علي، والشيخ بهجة البيطار، وعزّ الدين التنوخي، وعبد الوهاب عزّام، والزيّات، والشيخ عبد الوهاب خلاّف، والشيخ محمد الخضر التونسي، ومن لا أستطيع أن أسرد الآن أسماءهم، ولو جمّعت ذهني لكتبت عنهم كتاباً صغيراً.

* * *

أين مني تلك الأيام؟ ماذا أجد -إن ذهبتُ- من بقاياها، من أريجها، من عطرها، من أنقاضها، من آثارها؟ وتلاميذي الذين لا أحصيهم عدداً، وإن ظللت أذكرهم أبداً وأتعلل بذكراهم على

طول المدى وبعد الزمان؟ لقد كان منهم عبد السلام عارف رحمه الله وغفر له ما كان أخطأ فيه. لقد صار رئيس الجمهورية، وكلما قابل أحداً من أهل الشام سأله عني وعن أنور العطار، ولكني لم ألقَه بعدها، إني أتهيّب أن أطرق باب الرفيق إن لم يتّصل حبلي تماماً بحبله ولم ترتفع الكلفة بيني وبينه، فكيف برئيس الجمهورية؟ حتى إنّ الذين صاروا وزراء من تلاميذي (وهم كثير) لم أعد أراهم، إذ هم في شغل عن زيارتي وأنا في عزوف عن زيارتهم.

وقليل من الطلاب الذين لبثوا -على طول العهد- محافظين على الود، منهم واحد سقت لكم من قبل خبره، كان طالباً في الشهادة الثانوية سنة ١٩٣٦، فلما نالها دخل الكلية العسكرية، فتخرج فيها وتدرّج صاعداً في الرتب العسكرية حتى صار عقيداً (كولونيل)، فحدثت أحداث في العراق اضطرته إلى ترك العسكرية، فماذا صنع؟ هل قعد في بيته يبكي ما فقد، يندب ماضيه يائساً من مستقبله؟ إنّ أصحاب الهمم العالية إذا هبطوا الجبل من جانب قاموا يحاولون صعوده من الجانب الآخر، لأنهم لا يطيقون البقاء في الحضيض بل يبتغون المعالي أبداً؛ فدخل كلية الحقوق، فدرس فيها ونال شهادتها وصار محامياً، ونجح في المحاماة، فحدثت أحداث اضطرته إلى ترك بغداد كلها، فهل يئس؟ إنه مؤمن، أشهد بإيمانه من يوم كان طالباً يقعد بين يدي، والمؤمن لا ييأس من روح الله، وإذا ضاقت به بلاد العرب فإن:

في الأرض منأى للكريم عن الأذى

فسافر إلى النمسا وتعلّم لسانها، ودخل كلية الطب وتخرّج طبيباً وقد تجاوز عمره الستين، ولم ينقطع طول هذه المدة عن

مراسلتي والاتصال بي، يرسل إليّ من الأدوية ما يفيد أمثالي في شيخوخته (وإن لم يكن شيء يردّ إلى أمثالي شبابهم الذي ولّى)، وقد رأيته في الحج من سنوات قليلة، زارني في داري في مكة. هل عرفتموه؟ إنه العقيد المحامي الطبيب جهاد عبد الوهاب.

ومنهم من هو اليوم من الدبلوماسيين العراقيين المرموقين، ومن الأدباء والباحثين المعروفين، لزمني مدّة لزوم الولد أباه، ثم راسلني مرة أخرى، ثم تراخى ما بيني وبينه فلم أعد أسمع عنه شيئاً، حتى رأيته يكتب في الشرق الأوسط مقالات فيها متعة وفيها منفعة، وهو الأستاذ نجدة فتحي صفوة.

* * *

يقول الشاعر (وأحسب أنه جرير)[1]:

ذمّ المنازلَ بعد منزلة اللوى والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

الأيام التي مضت ولن تعود؛ أحنّ إليها ولا أدري لماذا الحنين إليها؟ أنا الآن أوسع بحمد الله دنيا وأكبر اسماً وأكثر مالاً، لا أشكو من مرض وما بي حاجة إلى أحد، قد كفاني الله بفضله عمّن سواه. ولكنه الإنسان يزهد فيما وجد ويشتهي ما فقد، فأنا أحنّ إليها لأني فقدتها: أيامي في مصر في دار العلوم سنة ١٩٢٨، أيامي في بغداد سنة ١٩٣٦، أيامي في بيروت لمّا كنت أدرّس

(١) البيت لجرير، ويُروى شطره الثاني: «والعيش بعد أولئك الأقوامِ»، وهو من قصيدة له يجيب فيها الفرزدقَ مطلعها:

سَرَتِ الهُمومُ فبِتْنَ غيرَ نِيامِ وأخو الهُمومِ يَرومُ كلَّ مَرامِ

(مجاهد).

في الكلية الشرعية سنة ١٩٣٦ ، وكان من صغار التلاميذ الرجل العالم العامل المجاهد، الذي أكرمه الله فقضى شهيداً، هو الشيخ حسن خالد رحمه الله. وقبل ذلك أيامي في دمشق، بلدي الحبيب الذي أتمنى أن أقضي في ربوعه ما بقي لي من العمر، بين أهلي فيه وبين أصحابي. ولكن أين أهلي وأين أصحابي؟ ما بقي منهم إلاّ القليل، فلو ذهبت إلى الشام لغدوت فيها غريباً:

هذا جزاءُ امرئٍ أقرانُهُ دَرَجوا مِن قبلِهِ فتمنّى فُسحةَ الأجَلِ

بل أين دمشق؟ أين البلد الذي شهدته صبياً وشهد صباي؟ لقد تبدّل في كل شيء؛ لا الدار دار ولا السكان سكان. يقول الشريف الرضي:

وقائِلةٍ في الرّكب: ما أنت مُشتهٍ؟ غَداةَ جَزَعْنا الرّمْلَ، قلتُ: أعودُ

وهيهات، فلا الماضي يرجع ولا الشباب يعود، ولا مَن جعل الله أمرَ الناس بين يديه يتركني أكحّل العينَ برؤية بلدي قبل الممات.

كنت أجلس في دار العلوم في الأعظمية كلّ مساء بإذن من المدير، في هذا الصحن المشرق، تظلّلنا الأشجار قد أثقلتنا ثمارها، وتحفّ بنا الأزهار قد ملأت صدورَنا عطورُها، ومن فوقنا زقزقة العصافير كأنها موسيقى بارعة، ما وضعت أنغامَها عبقريةُ إنسان. وكان الفرّاش يعدّ الشاي، وكان الباب مفتوحاً، فليس تخلو عشية من أساتذة كرام يزوروننا، أو طائفة من الطلاب يجيئون إلينا، أو جماعة من الجيران نبقى معهم بين أحاديث تدور، أحاديث في العلم وفي الأدب ومناظرات تتخلّلها مراجعات في الكتب (وفي

المدرسة مكتبة كبيرة فيها كتب قيّمة)، حتى نسمع داعي الله للصلاة، فندخل المسجد من باب بينه وبين المدرسة فنصلي.

* * *

كان إخواننا في العراق يقولون لنا: "غداً ستنسوننا وتنسون بغداد". وها أنذا -بعد أكثر من خمسين سنة- أتعلّل بذكرى العراق وأثني على العراق؛ ما نسيته ولا نسيه من إخواننا وأصحابنا الذين كانوا معنا أحد، لا أنور ولا مظهر ولا زكي مبارك، رحمهم الله، ولا عبد المنعم خلاّف ولا أكرم زعيتر، مدّ الله في عمريهما. أسأل مَن يعرف خلاّفاً من قرّاء هذه المقالة أن يخبرني كيف حاله وأن يبلغه تحياتي وأن يحمل إليه حبي، فقد كان رفيقي في مصر في دار العلوم سنة ١٩٢٨، وفي المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٥٤، وفي القاهرة، وفي دمشق. كما كان من إخواننا في مصر الأستاذ عبد السلام هارون والأستاذ محمود شاكر.

* * *

وبعد، فما كنت أقدّر أنّي أقدُم بغدادَ، وأنّي أعيش فيها سنين من عمري، وأنّي أتخذُ فيها أصدقاء وأحبّة أعدّهم من أدنى أحبابي إلى قلبي.

وما أحسست يوماً بالغربة في بغداد، إلاّ ما ركّب الله في نفس الإنسان من الشوق أبداً إلى أول بلد فتح عليه عينيه وأول مجتمع عاش بين ظهرانيه، ولو كان البلدان (البلد الذي وُلد فيه والبلد الذي انتقل إليه) في الدولة الواحدة؛ ذلك بأن الله ما جعل هوى القلوب مَنوطاً بالحدود المرسومة على المصوَّر الجغرافي.

ألا يحسّ الشاميّ بالشوق إلى دمشق وهو يسكن في حلب؟ وابن بغداد في الموصل؟ وابن جدّة في الدمّام؟ على أنه قد ينتقل من البصرة إلى فاس، ومن الجزائر إلى اليمن، فلا يتبدل عليه إلاّ الوجوه والأسماء. وإن هو شعر بالغربة ذهب إلى المسجد فعاد إلى موطنه، لأن المسجد موطن كل مسلم، والمسافر من آخن في طرف ألمانيا إلى لييج في وسط بلجيكا لا يقطع على الطريق إلاّ نصف ساعة فقط بالسيارة أو بالقطار، فيجد أن ملامح البلد وبعض عادات أهلها تبدّلت كما تبدّل اللسان، وقد رأيت ذلك عياناً.

* * *

وبعد، فبلاد المسلمين كلها بلدي، أُحبّها حبّي بلدي وأحفظ لها من جميل الذكريات مثلَ الذي أحفظه من ذكريات بلدي، وأسأل الله أن يردّ عليها وحدتها، وأن يعيد إليها عزّتها، حتى تصنع لغدها مثلَ الذي صنعته لأمسها. وتحية مني لبغداد التي كتبت عنها هذا الكتاب.

مكة المكرمة

جمادى الأولى ١٤١٠هـ

فِلْم بغداد

نشرت سنة ١٩٥٦

لما بدت لي بغداد من كوّة الطيارة[١]، تلوح في وهج الظهيرة كأنها حلم الوصال يلوح لعاشق، أقبلت أنظر إليها من خلال الزجاج، وأقبَلَ الماضي، ماضي بغداد، ينظر إليّ من خلال السنين، وارتدّت بي الذكرى ألفاً وخمسمئة مرحلة في طريق الزمان، ثم وقفَتْ بي أشاهد مواكب الأيام موكباً إثر موكب، كـ(فِلْم) في سينما تَعرض فصولُه «قصة بغداد». ولو كنت أستطيع أن أعرض «الفِلْم» كله لأحسستم أنكم تعيشون معي في قلب التاريخ وتحيون معي «أشخاصاً» في هذه القصة العبقرية التأليف والإخراج، ولكن الفِلْم طويل، فاكتفوا بهذه اللمحات الخاطفة من هذا (الفِلْم) العظيم.

* * *

نحن الآن في مطلع الفلم، قبل ألف وأربعمئة سنة، وبغداد قرية صغيرة، عندها سوق للغنم والجمال، ومن حولها السواد فيه

---

(١) في زيارتي الأخيرة لبغداد سنة ١٩٥٤، وقد وضعت هذه المقالة بين يدي كتاب «بغداد» لتكون كالمدخل إليه..

النخيل، ومن وراء السواد هذه الصحراء التي تتلظى فيها الرمال وتتوقّد الشمس، ويبدو من كل جهة فيها وجه الموت يتربص لكل قادم عليها من غير أهلها الذين أنسوا بالموت حتى رأوا فيه الحياة، يعيشون عيش الأُسد في آجامها، يُدْلون بمثل ظفر الأسد ونابه ويطوون صدورهم على مثل جرأته ووثابه، لذلك كانوا يحتربون ويتقاتلون إذا لم يجدوا من يحاربون ويقتلون، لا شريعة لهم إلا شريعة القوة ولا حكم إلا حكم السيف.

وفي جوار هذه القرية الخاملة كانت تقوم المدائن، قرارة كسرى شاهنشاه وفيها عرشه وإيوانه، العجم يسجدون بين يديه ويكفِّرون له[1]، والعرب يُكْبرون مكانه ويخافون سلطانه، ويسمون عاملاً من عماله (هو مدير ناحية[2] الحيرة، النعمان بن المنذر)، يسمونه ملك العرب.



ويدور الفلم، ويبدأ فيه فصل جديد.

انظروا، لقد ماج هذا البحر من القبائل التي كانت تسكن الصحراء، وتحرك واضطراب، ثم جرى فيه تيار قوي يجرف في طريقه كل شيء؛ لقد اتحد القوم المتفرقون، ونبذوا راياتهم وهي شتى ليحملوا راية واحدة جديدة هي راية القرآن، يقودهم تحتها المثنّى بن حارثة نحو أرض بغداد.

---

(١) ينحنون تعظيماً.

(٢) مدير الناحية أصغر الرؤساء الإداريين في الاصطلاح العثماني القديم والسوري الآن.

وها هم أولاء يتقدمون، ويتقدمون، ويتقدمون. لقد كان العجب العاجب؛ هؤلاء البدو الجاهلون ملكوا مُلكَ كسرى، فلا كسرى بعد اليوم، وشادوا في مكانه مُلكاً أنفعَ منه وأبقى...

ويدور الفلم، وتظهر صورة ثانية لبغداد.

نحن في سنة ١٤٥ للهجرة، وقد اندثرت القرية وذهب بها ريب الزمان، وعادت الأرض مراتع وبساتين. وكان صباح يوم صائف من أيام الخريف، فوقف بهذه الساحة ركب من الناس، ونزل رجال يذرعون الأرض ويقيسون طولها والعرض، فسألت: من هؤلاء؟ وماذا يصنعون؟

قالوا: ألا تعرف من هؤلاء؟ يا عجباً! هذا هو الرجل الذي عاش ثلثَي حياته عالماً مغموراً لا يدري به أحد، وعاش ثلثَها الثالث وهو الحاكم المطلق في نصف المعمور من الأرض، من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق. هذا هو الرجل الفولاذي الصلد الذي بنى دولة عاشت راياتها وشاراتها واستمر ذكرها على المنابر أكثر من ثمانمئة سنة، هذا أبو جعفر المنصور جاء يقيم ها هنا مدينة.

ولم يغتصب الرجل الحديدي ذراعاً واحداً من الأرض، وما كان الغصب يوماً من صفات المسلمين، بل اشترى الأرض من أصحابها بأكثر من ثمنها وأقام مدينته عليها.

لقد مر على هذا المشهد سنتان، ودار الفلم دورة جديدة، وإذا المدينة عامرة.

أترونها على الشط الغربي لدجلة؟ إنها مدوَّرة على هندسة

مبتكَرة، ما في المدن شبيه لها إلا دهلي الجديدة (نيودلهي). لقد احتُفل بافتتاحها سنة ١٤٩ وبلغت نفقات بنائها ١٨ مليون دينار. أتعرفون كم تبلغ من نقود هذه الأيام؟ لقد ذكر المؤرخون أن الدينار كان يُشترى به يومئذ تسعة عشر خروفاً، وألف ومئتا رطل من التمر، وكانت أجرة العامل مدى ستة أشهر ديناراً واحداً، فانظروا كم يساوي مبلغ ثمانية عشر مليون دينار من نقود هذه الأيام!

وجعلها مدورة لئلا يكون بعض أنحائها أقربَ إليه من بعض، وجعل فيها مجلسه وأقام عليه إيواناً عليه قبة خضراء علوّها ثمانون ذراعاً، وجعل من المجلس إلى الأرض الفضاء نفقاً (سرداباً) طوله فرسخان، وبقيت هذه القبة وهي -كما يقول الخطيب البغدادي- تاج بغداد وعلَم البلد، تُرى من أطرافها جميعاً، حتى هوت في ليلة عاصفة من سنة ٣٢٩، أي بعد مئة وثمانين سنة.

ودار الفلم، وظهرت صورة ثالثة لبغداد.

لقد بلغت بغداد من عمرها عشر سنين فقط، ولكنها شبّت كما يشب الجنّي في قصة ألف ليلة، واستطاعت أن تقفز من فوق دجلة إلى الضفة الأخرى، فهل سمعتم ببنت عشر سنين تقفز نهراً عرضه خمسمئة ذراع؟

لقد أقام المهدي الرُّصَافة، فصارت بغداد بلدين: الكرخ من هنا (من جهة الشام) وفيها مدينة أبي جعفر المدوّرة والقبة الخضراء، والرصافة من هناك.

وتكاملت بغداد، واتصل الشاطئان، وامتدّت الدور، وتناثرت القصور، وسكرت بغداد بخمرة المجد والجاه والعلم والفن والغِنى والسرور، وجاء العصر الذهبي، عصر ألف ليلة وليلة، عصر هارون الرشيد الذي قال للسحابة لمّا رآها: "أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك"، والذي كانت كلمته تمضي في الأرض حتى تصل إلى أبواب الصين وشواطئ الأطلنطي، لا يردّها شيء، والذي ملك ما لم يملك مثلَه ملك وقام ليلةً يصبّ الماء على يد العالم أبي معاوية الضرير بعد أن عشّاه معه على مائدته، فقال للعالِم الضرير: أتدري من يصب الماء على يديك؟ قال: لا. قال الخليفة العظيم هارون الرشيد: أنا!

فهل ترونه اضطرب العالم أو اهتزّ؟ لا والله، وبقي يغسل يديه وهو يقول: إنما كرّمتَ العلم يا أمير المؤمنين.

هكذا كان ملوكنا يا سادة، وهكذا كان العلماء.

* * *

لقد صارت بغداد أمَّ المدن وحاضرةَ الحواضر، وبلغت ما لم تبلغه روما في سلطانها ولا القسطنطينية ولا المدائن ذات الإيوان؛ لقد غدت سيدة العالم والبلاد لها خَوَل، ما يظهر في بلدةٍ طريفٌ ولا ظريفٌ من ثمرات الأيدي ولا من نتاج الطبيعة ولا من حصاد الأدمغة إلا حُمِل إلى بغداد، ولا ينبغ نابغ في مشرق من الأرض ولا مغرب إلا أمَّ بغداد؛ فالقوافل أبداً تتجه إلى بغداد بكل ثمين وجميل، تحمله إليها لتلقيه بين يديها كما تحمل ماءها الأنهارُ من كل مكان لتصبه في البحر. لقد تمت، ولكن:

إذا تَمّ أمرٌ بدا نقصُهُ   ترقَّبْ زوالاً إذا قيلَ: تَمْ

لقد أصابتها عين الحسود... لقد حلت النكبة ببغداد، ونزلت ساحتها الحرب بوجهها الكالح ومنجلها الذي يحصد الأخضر واليابس.

إنها الحرب الداخلية، الحرب بين الولد المدلل المُترَف وأخيه الجاد العامل، بين بغداد التي تميس كعروس جُمع لها الشباب والجمال والحسب والمال، وبين مرو التي وقفت بقدمَي الرجل الصلد المتقشف؛ بين الأمين والمأمون.

إنها إحدى الثمرات المرة لهذه الغرسة التي غرسها في تاريخنا معاوية رحمه الله حين عهد بالخلافة لابنه يزيد، وعلّم الخلفاء إيثار مصلحة الولد على مصالح الأمة.

ولكن الغادة الشابة القوية لا تموت من المرضة العارضة مهما اشتدت، ولقد برئت بغداد وعادت إلى أبهى مما كانت عليه وأزهى.

ومضى الفلم، وبدت صورة لبغداد وهي على كرسي الولادة.

لقد وَلَدَت بغداد، وكان الطبيب المولِّد هو الخليفة الذي كان آية في قوة جسمه ورجولته، وآية في جهله وعاميّته، والذي أدخل جراثيم المرض الفتّاك في جسد هذه الدولة القوية؛ المعتصم الذي جاء بغلمان الأتراك فجعلهم سادة الدّولة، فجرّ علينا مصائب ثمانية قرون.

لقد وَلدت بغداد يا سادة، ولدت بنتاً، ولكنها جاءت جنيّة

بنت جنية، أعجوبة ولدتها أعجوبة. وهل أعجب من مولودة تخرج من يد القابلة وهي ترقص وتغني وتتكلم بسبع لغات؟

ولم تكد تنتهي أفراح الولادة، حتى كانت أيام المأتم.

لقد ماتت الوليدة طفلة، ماتت وهي في مثل عمر الفل، ولكنها تركت في تاريخ الأمجاد عبقاً أطيب من أريج الفل. تلك هي «سُرّ مَن رأى»، «سامراء» التي لم تَعِش إلا ثمانياً وأربعين سنة فقط، والتي بلغ سكانها مليونين، على حين كان في بغداد أيضاً أكثر من مليونين. ولن أحدثكم عن سامراء، فافتحوا معجم البلدان تروا طرَفاً من ماضيها، وافتحوا كتابي «في بلاد العرب»[1] تروا طرفاً من حاضرها، واتلوا ما قال البحتري في بِركة قصر المتوكل. لقد رأيت آثار البركة من عشرين سنة[2] وقست قطرها فكان أكثرَ من مئتَي خطوة. لقد مشينا فيها خمسة وعشرين كيلاً بالسيارة وما قطعنا نصف المدينة من هنا، فماذا تكون مساحتها وعلى الشط الآخر من هناك مثل ذلك؟ لقد مررنا بشارع عرضه

(١) نشر علي الطنطاوي هذا الكتاب سنة ١٩٣٩، في السنة التي قامت فيها الحرب الكونية الثانية، وقال في مقدمته: "سميت هذا الكتاب «في بلاد العرب» وكان أليقَ به لو دعوته «بين حربين»"، ثم قال إنه يضم مجموعة من المقالات التي نشرها خلال تلك السنوات التي تنقّل فيها -معلّماً- بين مدن سوريا والعراق ولبنان. وقد نفد الكتاب منذ عهد طويل ولم يُعِد الشيخُ طباعته؛ لأن كل مقالاته أو جلها أُعيدَ نشرُها في سائر كتبه. أما الحديث عن سامراء فهو في مقالة يضمها كتاب «بغداد» هذا، وهي الثالثة فيه (مجاهد).

(٢) أي سنة ١٩٣٦ لمّا كنت مدرساً في بغداد.

مئة ذراع، سرنا فيه نحواً من ستة أكيال (كيلومترات)، ورأينا القصر الجعفري الذي قُتل فيه المتوكل، فإذا هو أكبر من مدينة سامرا الحاضرة.

ماذا أقول لكم عن «سر من رأى» التي كانت أوسع رقعةً من باريس؟ عن عظمتها؟ عن آثار مصنع الزجاج الملون العجيب فيها؟ ومصنع القماش الذي أخرج من أقمشته ما يزري بما على أجساد حسان هوليود؟

يا أيها القراء، أستحلفكم بالله إن زرتم العراق أن تجوزوا بسامرا، فليس في آثار المجد الإسلامي ما هو أروع منها، ولا في قصص الآثار العربية ما هو أحلى وأشجى من قصتها، اللهم إلا «تاج محل» في أغرا عند دهلي. ومن عرف الألمانية يجد حديثها كاملاً في المجلدات التي وضعها عنها هرسفلد الألماني[١].

* * *

ومضى الفلم، وبدت صورة بغداد وقد وصلت إلى ذروة مجدها وجلالها، وحازت ما لم تَحُزه قبلها مدينة من المدن.

وهذا يوم واحد من أيام بغداد العظيمة. ولست مستطيعاً أن أصوّر لكم كل ما كان في ذلك اليوم، فهل رأيتم في السينما مشاهد تتويج الملكة في إنكلترا؟ إني أؤكد لكم القول إن حفلات التتويج تكون حادثاً صغيراً إذا قيست بحفلات استقبال وفد قيصر القسطنطينية في بغداد أيام المقتدر.

---

(١) وهو الذي نقب عنها وكشف آثارها.

لقد وقف مئة وستون ألف جندي بأكمل عدة وأفخر ثياب، من خارج المدينة إلى باب قصر التاج، جنود من كل البلاد وكل الأجناس، وأقيمت الأقواس والأعلام، وسُلْسلت المصابيح ومدّت النمارق والسجادات والبسط العجيبة على طول الطريق، فبلغ عددها اثنتين وعشرين ألف قطعة سجاد.

وخرج أهل بغداد جميعاً، وقد زادوا عن ثلاثة ملايين، إلى الطرقات التي سيجتاز بها موكب الوفد، فبلغت أجرة مجلس الرجل الواحد في الدكان أو على السطح عشرين درهماً، أي أكثر من دينار.

ولبس قصرُ التاج حلةً لا يمكن لقلم كاتب أن يصفها، وحسبكم أن تعلموا أن عدد ما عُلّق فيها من ستور الديباج المذهبة الطراز المصوَّرة بأبدع ما أخرجته أيدي النُّقّاش والمصوّرين والمطرّزين في أرجاء الأرض كان ثمانية وثلاثين ألف ستر.

ولا تحسبوا قصر التاج كما تعرفون من القصور. لا، ولا تظنوه كالحمراء في غرناطة ولا فرساي في باريز؛ كان فيه ثلاثة وعشرون قصراً، كل واحد منها أكبر (كما وصفوا) من قصر عابدين في مصر. وكان في إصطبل الخيل في القصر ألف فرس، خمسمئة على اليمين عليها السُّرُج المُحلاّة بالذهب والفضة وخمسمئة على اليسار بجلال الديباج والبراقع الطوال، وكل فرس أمام بيته بيد سائس بأجمل بزة.

ومروا بالوفد على حَيْر الوحوش[1] المستأنسة، وكان فيه

---

(١) حير الوحوش حديقة الحيوان، وأصل الحير البستان.

مئة من السباع، خمسون عن يمين وخمسون عن يسار، وفيه دار الفِيَلة.

ثم مروا به على قصر الفردوس، وكان فيه بهو طوله ثلاثمئة ذراع قد صُفَّت فيه أنواع الأسلحة التي لم يرَ الراؤون مثلها.

ثم دخلوا به دار نصر الحاجب، فلما رأى الوفد عظمة المكان وأبّهة نصر حسبوه الخليفة فركعوا وسلموا، فقيل لهم: كلا، هذا هو الحاجب.

ثم أدخلوهم على الوزير ابن الفرات، وكان في مجلس في حديقة القصر بين دجلة والبستان، قد عُلّقت فيه الستور ومُدّت الفُرُش، وكان شيء عجيب، فحسبوه الخليفة فركعوا وسلموا، فقيل لهم، هذا هو الوزير.

ثم وصلوا إلى الخليفة، واستقبلهم في دار الشجرة، وهي شجرة من الفضة وزنها خمسمئة ألف مثقال وبعضها من الذهب والجوهر، لها غصون وأوراق تميس ميَسان أغصان الشجر، وعليها أطيار من الفضة تصفر وتتحرك بحركات قد رُتِّبت لها. وكان عدد خدم القصر المنبثّين في الممرات والدهاليز وعلى السطوح، بألبسة عجيبة وزينة بالغة، سبعة آلاف خادم، وكان الحُجّاب أكثر من خمسمئة.

وكان يوماً من أيام التاريخ.

* * *

ومضى الفلم، وبدت صورة بغداد وقد وشحت بالسواد ولبست ثياب الحداد.

لقد ماتت بغداد بني العباس، وكل حي إلى ممات، وذهب شبابها، وما يدوم في الدنيا شباب، وامّحت محاسنها وخرّبتها أيدي الوحوش البشرية من جند هولاكو، جاءت بهم خيانة الوزير ابن العلقمي؛ فذل الأعزة من أهلها، وانتُهك المَصون من أعراضها، وذُبح علماؤها وكُبراؤها وأمراؤها، وأُعمل السيف في أهلها أربعين يوماً، فبلغ القتلى أكثر من ألف ألف، وألقيت كتبها في دجلة فاسودّت منه مياهها حيال الضفتين أياماً، وذهب نتاج العقول وحصاد العبقريات وثمرات الأيدي الصَّنَاع، وكانت مصيبة المصائب على الإسلام وأهله، وغدت بغداد خرائبَ وأطلالاً.

لسائِلِ الدّمعِ عن بغداد أخبارُ ... فما وقوفُك والأحبابُ قد ساروا
يا زائرين إلى الزَّوْراء لا تَفِدوا ... فما بِذاك الحِمى والدارِ دَيّارُ
تاجُ الخلافةِ والرَّبعُ الذي شَرُفَت ... به المَعالِمُ قد عَفّاهُ إقفارُ
أضحى لعصفِ البلى في رَبعِهِ أثَرٌ ... ولِلدّموعِ على الآثار آثارُ[1]

* * *

وتوالت المصائب على بغداد، ولكن البطولة التي صبّها الله على يد محمد ﷺ في عروق هذه الأمة لم تَمُت، وقامت مصر الإسلامية تقف في وجه المغول وحدها بعدما اجتاحوا بغداد وعصفت رياحهم بكل قطر، ينفخ في أرواحها الحماسة ويَعِدها النصرَ ويسوقها إلى القتال شيخٌ من الشام هو العز بن عبد

---

(١) الأبيات من قصيدة مشهورة في سقوط بغداد لتقي الدين بن أبي اليسر، وهي في كتب التاريخ (مجاهد)..

السلام[1]، وانتصر الإسلام على المغول في وقعة عين جالوت، وأُنقذت مصر والشام كما أُنقذت فلسطين من الصليبيين لمّا رمتها أوربة كلها عن قوس واحدة، وكما ستُنقَذ من إسرائيل عندما يقيِّض الله شيخاً كابن عبد السلام أو قائداً كصلاح الدين أو الظاهر بيبرس.

ونهضت بغداد من سقطتها، ووقفت بغداد على قدميها. وبُعثت بغداد من جديد، فإذا هي اليوم أجلّ جلالاً وأوسع سَعة وأكثر سكاناً من بغداد الماضي.

وقعدت أفكر في تتمة الفِلْم وفيه «بعث بغداد»، وألقيت القلم من يدي وصورةُ بغداد...[2].

وانقضى الفلم وصورة بغداد -بمناراتها وقِبابها، ومعاهدها ومدارسها، وامتدادها وعمرانها- تملأ أبصار المشاهدين وتعيش أبداً في قلوبهم.

فسلامٌ على بغداد، على بغداد المنصور والرشيد، على بغداد الأئمة والمحدّثين، على حاضرة الدنيا ومثابة الدين، على بغداد الجديدة المتوثبة وملءُ إهابِها العزمُ والإيمان، على بغداد التي ستكتب قصتها مرة أخرى في صحائف القوة والعلم والمجد.

---

(١) انظر خبره في كتابي «رجال من التاريخ»..

(٢) هذا السطر ليس من أصل المقالة التي كُتبت سنة ١٩٥٦، وقد أضافه جدي إليها في طبعة دار المنارة التي صدرت سنة ١٩٩٠، وفيه حسرة من «بعث بغداد» انقطعت الجملة به. ولو عاش إلى اليوم لأضاف إلى الحسرة حسرات؛ نسأل الله لبغداد الفرج في يوم قريب (مجاهد).

من دمشق إلى بغداد

نُشرت سنة ١٩٣٦

لما جاوزنا أبا الشامات[١] وأصحرنا، ونظرت بين يديّ وعن يميني وعن شمالي فلم أجد إلا الصحراء الصامتة الرهيبة الموحِشة، ووجدت دمشق (التي أحببتها ولقيت فيها من يحبني، وألِفتها وتركت في كل بقعة منها قطعةً من حياتي وطائفةً من ذكرياتي) قد اختفت وراء الأفق وتضاءل «قاسِيونها» وصَغُرَ حتى ما يبدو منه إلا خيال علويّ يلوح في حاشية السماء له وميض ولمعان، أحسست بلوعة الفراق، فخفق قلبي خفقاناً شديداً:

كأن القلبَ ليلةَ قيل يُغدَى ... بليلى العامريّةِ أو يُراحُ
قَطاةٌ غرّها شَرَكٌ فباتَتْ ... تُعالِجُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ

وخالطني حزن عميق وشعور مبهم أعرفه من نفسي كلما سافرت سفراً بعيداً (على كثرة ما أسافر وأبتعد)، شعورُ مَن يجد الموت ويبصره بعينه!

ولِمَ لا؟ وهل الحياة إلا أن تقيم في المكان الذي تألف،

---

(١) في زيارتي الأولى لبغداد سنة ١٩٣٦، وأبو الشامات آخر مخفر سوري على حافة الصحراء.

وترى الناس الذين تحب، وتصل ماضيك بحاضرك بصورة تراها، أو نغمة تسمعها، أو بقعة تحتلها؟ وهل يحيا المرء إلا في الأمكنة والوجوه، وبالذكريات والآمال؟ وهل الموت إلا أن ينبتر ممّا يحيط به، وينقطع عن كل ما يعرف، ويقدُم على بلد مجهول وحياة غريبة عنه، لا عهد له بها ولا نبأ عنده منها؟

أوَليس للإنسان حياة ظاهرة في قيامه وقعوده، وطعامه وشرابه، وجيئته وذهابه، وحياةٌ باطنة في أفكاره وذكرياته، وآماله وآلامه، وميوله وعواطفه؟ أوَليست حياته الباطنة هي الأصل وهي الأساس، فلا يحيا إلا بها ولا يقوم إلا عليها، كما أن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف الأرض، المختفية في بطن الثرى؛ فإذا انقطع المرء عن عادته وابتعد عن أهله وصحابته لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب، كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها إذا هي بُتَّت من أرضها وقُطعت من أصلها وفُصلت عن جذرها؟

وأحسب أن الله -جلّ وعزّ- ما قرن الموت بالإخراج من الديار، وأجزل ثواب المهاجرين في سبيل الله التاركين أوطانَهم ابتغاء مرضاة الله، إلا لأن الهجرة ضربٌ من ضروب الموت ولونٌ من ألوانه، فإن تعددت الألوان فالموت واحد!

وازدحمت في نفسي صور حياتي في دمشق، وحُبّبت إليّ أضعافَ ما كنت أحبها، ومرت أمامي صور إخوتي وأهلي وإخواني، وذكرت سهراتنا البيتية ومجالسنا الأدبية، وهذه الحفلات الوداعية الكثيرة التي تفضلَت فأقامتها أسرة التعليم وجمعية التمدن الإسلامي والمدرسة التجارية تكريماً لي قبل أن أعمل شيئاً أستحق

عليه التكريم، وأفيض عليّ من النعوت ما ليس فيّ ولا أستحق الأقلّ منه. وذكرت من دمشق كل حبيب إليّ جميل في عيني، فازددت بها تعلقاً، ووددت لو أني أبَيْتُ فلم أذهب ولم أتغرّب.

وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا وأحدقت بنا، وصرنا في قبضتها لا شأن لنا ولا خطر، وآضَت هذه السيارات الفخمة -التي كانت تملأ الشارع بطوله وعرضه وكانت تُعَد وهي في دمشق شيئاً عظيماً- أهونَ على الصحراء من حبة رمل، وضاعت في أرجائها فلم تَعُدْ تُعَدّ شيئاً.

وكان قد بلغ مني الحزن وحزّت في نفسي لوعة الفراق، فأغمضت عيني ورجعت إلى نفسي، حتى إذا استروحتُ فتحتهما وجعلت أحدّق في هذه البادية، فأرى السيارة تعدو فيها وتسرع حتى نحسّ كأنها تطوي الأرض طياً، وأراها تلهث من التعب والباديةُ باقية على حالها، كأننا لم نقطع منها شبراً وكأننا بعدُ في أماكننا.

ولست غريباً عن البوادي فقد عرفتها في رحلتنا تلك إلى مكة[1] وبقيت فيها عشرين يوماً، ما من ساعة منها إلا وهي أشدُّ من عشرة أسفار إلى بغداد، ولكن هذه البادية (بادية الشام) تختلف عن جزيرة العرب، ففي الجزيرة مناظر متباينة وأراض مختلفة؛ فيها الجبل وفيها السهل، وفيها الوعر وفيها الرمل، وما في هذه إلا شيء واحد لا يكاد يختلف أو يتغير، أرض منبسطة ترابية قاحلة تمتد إلى الأفق، كأنه بحر ليس فيه ماء!

---

(١) اقرأ وصفها في كتابي «من نفحات الحرم».

فكنا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بحديثنا، فتقطع الصحراء بصمتها وجلالها حديثَنا، وكنا ننام ونفيق والصحراء هي هي... حتى قطعنا يوماً كاملاً، وكان صباح اليوم التالي، وللصباح في البادية جمال وروعة لا يكون مثلهما في المدن، وبدّدت الشمسُ ظلمةَ الليل فتبدّدت من نفسي ظلمة الكآبة والحزن وانزاحت عني نوبة المرض، وما العاطفة الرقيقة المؤنّثة إلا مرض في الرجال، فصحوت ونظرت في أمري فإذا أنا لم أغترب ولم أفارق بلدي.

وهل بغداد إلا داري وبلدي وفيها أهلي وإخوتي؟ إن لم تقرّر هذه الأخوّةَ الأنظمةُ ولم تسجَّل في الدساتير فلقد قررها الله من فوق سبع سماواته وسجّلها في القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وليس يُنقَض ما أبرم الله.

وإن فرقت بيننا شارات على الأرض وألوانٌ على المصوَّر[1]، فلقد جمع بيننا الدين[2] واللغة والعادات، وألّفَ بيننا تاريخ الماضي وأملُ المستقبل وألمُ الحاضر، ووحّدَ بيننا الدم الذي جاء من نبعة واحدة. فأنّى ننكر هذه الأخوّة وشاهدها فينا ودمها في عروقنا؟ وكيف أجهل بغداد ولها في نفسي مئة صورة، وفي ذاكرتي عنها ما لا أحصي من الأخبار والتواريخ والأشعار؟

وبغداد عاصمة الإسلام، ومشرق شمس الحضارة، وحاملة

---

(١) أي الخريطة، كذا سماها جدي دائماً. والخريطة بهذا المعنى استعمال حديث، وهي -في الأصل- كيس من الجلد يُشَدّ على ما يوضع فيه (مجاهد).

(٢) وكفى به جامعاً بيننا.

راية العصر الذهبي الإسلامي، وأم الدنيا، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون...

فِدىً لك يا بغدادُ كلُّ قبيلةٍ مِنَ الأرض إلاّ خِطتي ودِياريا
فقد طفتُ في شرقِ البلاد وغربها وسيَّرتُ رَحلي بينها ورِكابيا
فلم أرَ فيها مثلَ بغدادَ منزلاً ولم أرَ فيها مثلَ دجلةَ واديا
ولا مثلَ أهليها أرقَّ شمائلاً وأعذبَ ألفاظاً وأحلى معانيا

وكنت أرانا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مسلوكة في سيارة متينة، ونمَلّ من طولها ونحن نقطع منها ثمانين أو تسعين كيلاً في الساعة، ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة والماء المثلج، ونتعب ونحن مضطجعون على المقاعد الوثيرة ثم إذا وصلنا إلى الفندق نمنا أربع عشرة ساعة لنستريح ونسترد الروح، فأفكر في أجدادنا أيَّ ناس كانوا؟ وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الإبل، يخوضون لجة الرمل الملتهب ويلتحفون أشعة الشمس المحرقة، يتبلّغون من الطعام بتمرة ويكتفون من الماء بجرعة، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر عدَداً وعُدداً فحاربوها وانتصروا عليها وفتحوا بلادها، فأقول: هذا هو فرق ما بيننا وبين أجدادنا.

هذا هو الفرق بين الشاب منهم تصيبه ضربة في المعركة فتقطع يده من كتفه، وتلبث متعلقة به فتؤذيه وتعيقه عن القتال، فيعمد إلى أصابع يده المقطوعة فيدوس عليها بقدمه، ثم يتمطى حتى يبترها، ثم يلقيها ويعود إلى جهاده، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شيء هو لها، فيخطر في الشارع كالعروس في ليلة الزفاف، وإذا شاكته شوكة أو لفحته الشمس أوى إلى الفراش!

ولما كان ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق، وأشرفنا منه على

مثل الليل، فعرفت لماذا سمى العرب السواد سواداً، وذهبت أتذكر الفتوح (وعهدي بمطالعتها قريب[١]) فأحسّ بأني أسمو عن زماني وأعيش في أيام الصدر الأول، وأقدّر بُعدَ نظر المستعمرين وعمق مكرهم في تعطيلهم التاريخ الإسلامي في مدارسنا وتنشئة أبنائنا على الجهل به والبعد عنه، لما لهذا التاريخ من العمل السحري على بثّ روح الشرف والنبل والقوة والعزة والفضيلة في نفوس شباب العرب، ولأنه شمس إذا طلعت كسفت هذه الأنوار الكهربائية التي أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم، فبدت تواريخهم بعد ذلك سوداء مظلمة... وبدا وحده المشرق المنير.

وجعلت أتشوّق إلى بغداد، وأعرض في ذاكرتي صوراً منها، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور بأسوارها المستديرة وأبوابها الفخمة، وألمح قبّتها الخضراء العالية المشمخرّة الذاهبة في السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة، تضطرب صورتها في دجلة[٢]. وملأ نفسي الشعور بعظمة بغداد، المدينة التي كانت وحدها دنيا: "كان فيها ستون ألف حمّام، فلو كان في كل حمام خمسة نفر: حمامي وقيم وزبّال ووقّاد وسقّاء، وذلك أقل ما يكون، لكان أصحاب الحمامات ثلاثمئة ألف رجل. وكان حيال كل حمام خمسة مساجد، فلو كان في كل مسجد خمسة أشخاص لكان ذلك ألف ألف وخمسمئة ألف إنسان. وأحصيت الزوارق التي في دجلة فكانت ثلاثين ألفاً"[٣].

(١) كنت أشتغل قبل سفري بتأليف كتابي عن أبي بكر الصديق.
(٢) سقطت هذه القبة وتهدمت من قديم.
(٣) كذا قال المؤرخون، والمبالغة في ذلك كله ظاهرة.

قال الخطيب: "لم يكن لبغداد في الدنيا نظير؛ في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها، وسعة أطرارها، وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشعوبها ومحالّها وأسواقها، وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة سكانها".

* * *

وبعد، فهأنذا على «جسر بغداد» في نشوة من خمرة الذكرى؛ أذكر ما لا سبيل لي إلى تلخيصه، وأحس ما لا طاقة لي على وصفه. وقد قال أبو الوليد: قال لي شعبة: أرأيت جسر بغداد؟ قلت: لا. قال: فكأنك لم ترَ الدنيا.

أما أنا فرأيت جسر بغداد ورأيت الدنيا. لا أقول إنه أعظم من جسر إسماعيل أو أجمل من جسر الزمالك، ولكن لجسر بغداد سراً آخر يعرفه كل من نظر في كتب الأدب والتاريخ وقرأ عن جسر بغداد. هذا الذي جازه القواد الفاتحون، والفقهاء والمحدّثون، والشعراء والماجنون. هذا الذي وقف عليه الرشيد والمأمون، وأبو حنيفة والشافعي والفضل بن دينار، ومطيع وأبو نواس، وعبد الله بن طاهر ويزيد بن مِزيَد.

وشهد جلال الخلافة، وعظمة العلم، وروعة الزهد، وضحك المجون، وقوة الجيش.

وجرى عليه نهر التاريخ.

وتداعت على جوانبه القرون.

هذا الذي كان سرة الأرض!

أيا حبّذا جسرٌ على مَتنِ دجلة ... بإتقانِ تأسيسٍ وحُسنِ رَوْنَقِ

جمالٌ وفخر للعراق ونزهة ... وسلوةُ مَن أضناه فَرطُ التشوّقِ

تراه إذا ما جئته متأمّلاً ... كسطر عَبير خُطّ في وسط مُهْرَق[١]

* * *

أما إنني إن أحببت مصر لأن منها أصلي، وأحببت الشام لأن فيها مولدي، وأحببت الحجاز لأن إليها قبلتي، فإني أحب العراق لأن فيها أجمل ذِكَر الماضي، وأحب كل بلد يقول أهله: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» لأنه بلدي وأهلُه أهلي.



(١) المُهرَق: الصحيفة.

سُرَّ مَن رأى

نُشرت سنة ١٩٣٧

الآن رجعت من التاريخ. إني أرى الدنيا صغيرة خالية لأني كنت في دنيا أكبر منها وأحفل بالنور والعطر، كنت في «سُرَّ من رأى».

جلست أدوّن رحلتي إلى الحلّة (دمشق العراق)، ووقوفي على أنقاض بابل (أخت الدهر)، وزيارتي السدّة الهندية (القناطر الخيرية الثانية) وما أولاني الحلّيون من ألوان المنن وأنواع الكرم، فلم أكد أمضي في المقالة حتى عرضت لي رحلة جديدة إلى سُرَّ من رأى.

ومن ذا الذي لا تفتنه سرّ من رأى ولا تهيج بلابل أشواقه؟ ومن ذا الذي نظر في كتب التاريخ أو شدا شيئاً من الأدب، ثم لا يعرفها ولا يحسُّ أن لها صلة بنفسه؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات، بصوت خافت كأنه مناجاة النفس، بطيء كأنه هجس الضمير، وأنتم تنظرون بعيونكم إلى بعيد تحدقون في غير شيء، فعلَ مَن يتذكر أمراً، ثم انظروا كم يثير في نفوسكم من ذِكَر وحوادث، وفِكَر وعواطف، أقلّ ما توصف به أنها لا توصف.

وكيف تحتويها كلمات وهي عالم، وكيف تنتظمها لغة الأرض وهي لغة السماء؟

ومتى كان الإنسان ناطقاً مبيناً؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة لكائنات عظيمة، إن العواطف مئات ومئات وما ثَمّ إلا كلمة واحدة تُسمّى بها، وكذلك الجمال والحب والطبيعة. لا، إن الإنسان لا يزال طفلاً لم يتعلم النطق ولم يحسن البيان.

* * *

سُرّ من رأى. وما سرّ من رأى؟

هي التي نهضت لبغداد لمّا كانت بغداد عاصمة الأرض، ولمّا بلغت غاية المجد وأبعد الأماني وبذّت كل مدينة، وكان فيها مليونان من السكان، وكان فيها العلم والفن والسلطان. نهضت لها تزاحمها وتنافسها، فلم تكن إلا ليالٍ حتى غلبتها وبهرتها وتربعت على دجلة من فوقها، وسلبتها خليفتها وأبّهتها وجُلّة أبنائها، وكانت أجلّ منها وأعظم.

سرّ من رأى، المدينة الملوكية[1] التي ولدت فجأة فإذا هي أجل المدن، وإذا في كل ناحية منها عرس وفي كل بقعة منها عرش، وإذا هي تتّشح بالنور وتتضمّخ بالعطر وتنام على الزهر، وإذا هي تبلغ ما لم تبلغه من بعدُ الزهراء المدهشة ولا فرساي.

---

(١) النسبة صحيحة مستعمَلة من القديم وإن كان القياس «ملكية». ومثلها في النسبة إلى الجمع: رجل أنصاري ورسالة إخوانية ومسألة أصولية، ومثلها قضايا عمّالية ومشكلات طلابية.

ثم ماتت فجأة، فإذا كل ذلك حلم سريع وبرق خاطف؛ لم تعش إلا خمسين سنة (٨٣٨-٨٨٣ م). وما خمسون سنة في عمر المدن إلا خمسون دقيقة. أفرأيت الجميلة التي ولدت بأعجوبة فإذا هي الغادة الفتانة، ثم إذا هي تقضي بعد ساعة؟

لم تكد تزدهر وتستقرّ حتى نودي فيها بالرحيل والرجوع إلى بغداد، فهبّ الناس مذعورين، يحملون ما خفّ حمله وغلا ثمنه، وتركوا المدينة العظيمة للرياح والوحوش واللصوص.

قرأت ذلك من حديثها، ثم لم أعرف عنها شيئاً ولم أدرِ ما صنع الدهر بها. وأين من يسأل عن الآثار ويبحث عنها؟ ومن يعرف اليوم ماذا جرى للكوفة ومسجدها، والبصرة ومِربدها، أو يعلم صفة القادسية واليرموك؟

من يسأل عنها، وهذا مسجد بغداد العظيم، مسجدها الجامع، قد ابتلعته الدور وطغت عليه فلم يبقَ منه إلا منارته تنادي لو وجدت سميعاً[1]؟ وما كان ذنب هذا المسجد وما كان ذنب هذه الآثار، إلا أننا نحن وارثوها لا الفرنسيس ولا الإنكليز، أولئك الذين لم يدَعوا في بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعة أو أثر من آثار الماضي إلا كتب عنه مؤرّخوهم، ووصفه أدباؤهم، وصوّره مصوّروهم، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجليلة وهدمناها بأيدينا لنبني بأنقاضها دورنا الحقيرة!

أسمعتم بالمدرسة النظامية التي درّس فيها حجة الإسلام

---

(١) وقد سمعت ولم أبصر أنهم أعادوا بناءه أفخم وأعظم مما كان وسموه مسجد الخلفاء.

الغزالي وإمام الحرمين الجويني، والتي كانت من أكبر جامعات القرون الوسطى؟ أتدرون ماذا بقي منها؟ منارة مهدَّمة طولها أربعة أمتار في زقاق عرضه ثلاثة أمتار، عند جامع مرجان في بغداد. والمنارة مائلة قد انحنت تحت أثقال دار قد ركبتها، وربما هدمت المنارة لتقام عليها الدار، فمن يدري؟

وأين من يدرس الآثار ويعنى بها، وهذا قصر الخضراء في دمشق لم يبقَ منه إلا اسمه تحمله مصبغة في زقاق القباقيب؟ يا لعجائب الزمان! صار مثوى التاج ومحط العرش زقاقاً للقباقيب![1] فمن سأل عنه ومن وصفه ومن حفر في أنقاضه؟

أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا إذن لحُرثت هذه البقاع حرثاً، ثم أخرجت كنوزها، ثم ملأت نفوس أهلها عزّة، ثم كانت لهم أجنحة يطيرون بها في معارج العلاء.

إن تحت هذه الأرض علماً ومجداً وجلالاً، ولكن ليس فوقها من يحفل العلم والمجد والجلال!

أوَليس من أعجب العجب -يا قومي- أن آثارنا لم يبحث عنها ولم يكشفها إلا هؤلاء الأوربيون؟ إن في جوار دمشق قريتين هما معلولا وجَبَعْدين تتكلمان السريانية منذ خُلقتا[2]، فما فكر أحدٌ في درس هذه اللغة ومعرفتها حتى جاء هذا المستشرق الشاب من آخر الدنيا ليدرسها.

---

(١) وقد سمعت أيضاً ولم أبصر أنهم أخلوا ما حول الأموي وسيجعلونه شوارع عِراضاً.

(٢) ليس على وجه الأرض اليوم من يتكلم بالسريانية غيرهما.

بل هذه هي «سُرّ من رأى» ما نقّب فيها وكشفها للناس إلا هرَسْفِلْد الألماني الذي حفر فيها سنة ١٩١١ كلها وبعض سنة ١٩١٣ بإشارة من أستاذه سار وبنفقة المصرف الألماني وبعض كبار الألمان. بدأ الحفر في قصر المتوكل ثم انتقل إلى الجوسق وإلى القصر المعشوق[1] واستخرج من هذه البقعة الصغيرة كرائم الآثار ونفائس الأعلاق التي انتقلت إلى الدنيا، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذي أخرجه هرسفلد في مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مدهشة حقاً. وهو يصف في المجلد الأول نقوش الجدران وزخارفها، ويقول إنها لم تكن تخلو دار من هذه النقوش الجصيّة البارزة الملونة أحياناً، وفي الثالث الرسوم والصور، وأكثر هذه الصور مما وجد في حمام الجوسق، وقد حلت هذه الصور مشكلة قصر المشتى الذي كشف سنة ١٩٠٨. ويتحدث في جزء عن الأواني الزجاجية والخزفية، وقد بيّن أنه كان في سُرّ من رأى معمل للزجاج ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعاته.

ومن أهم ما تمتاز به المدينة شوارعها التي لا تكاد تحوي مثلَها اليوم مدينةٌ في العالم، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظام عجيب، والشارع الأعظم (وآثاره باقية) يمتد عدة أميال

---

(١) قصر عظيم باقية آثاره، وهو مقابل قصر المتوكل على الضفة الثانية، لم يعرف أحدٌ تاريخَه، والعامة تسميه قصر العاشق والمعشوق، وبينه وبين قصر المتوكل آثار سد هائل في دجلة. وقد بحثت وحققت فوجدت أن تلك الأنقاض لقصر المعشوق الذي بناه المعتمد على الله، قالوا: وكان في الجانب الغربي قبالة سامراء.

بعرض مئة ذراع، ودورها التي كان أكثرها كبيراً فيه خمسون غرفة، وفيه مَجارٍ للماء وبِرَك، ومجار أخرى للماء القذر، وحمامات وسراديب للصيف مبنية على نظام يكفل لها حسن التهوية. وكان أكثر الدور على طراز واحد، فهي ذات ردهتين: ردهة حيال الباب تفضي إلى ردهة أخرى مستطيلة عمودية عليها، والغرف من حولهما.

وقد صحب هرسفلد رجل عسكري يدعى لودلوف متخصص برسم المصوَّرات، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة ١/٢٥٠٠٠، وصحبه رجلان مختصان بالنقوش هما بارتوس وبيجر. على أن ما كشفه هرسفلد لا يعد شيئاً، والمتحف العراقي عامل على موالاة التنقيب في الآثار وجمعها في متحف الآثار العربية، وينتظر ظهور أشياء هائلة.

* * *

سرنا إلى سر من رأى في قافلة مؤلفة من كبار طلاب دار المعلمين العالية في بغداد، فجزنا بالأعظمية وعبرنا النهر إلى الكاظمية ثم استقبلنا الفضاء.

ولم نقف في الطريق إلا على جسر «حَرْبي»، وهو جسر قائم وحده في الفلاة ذو ثلاثة قناطير، عليه كتابة ظاهرة تدل على أنه بُني في أواخر العهد العباسي على نهر دُجيل ليسقي مدينة حَربي. فتلفّتنا فإذا النهر قد جفّ، والمدينة قد مُحيت، والعهد العباسي قد انقضى، وإذا كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة وبلادنا تتأخر وتمعن في الخراب، فوقفنا معتبرين ومضينا مستعبِرين.

ولم نسر من بعدُ إلا قليلاً حتى طلعت علينا «المَلْويّة» وهي منارة جامع المتوكل، عالية تبدو من بعيد كالصرح الهائل، وقد شبهت مكانها من سر من رأى ببرج إفل من باريز، فهي علَم البلد ورمزه. ثم بلغنا دجلة فعبرناه، ودخلنا «قرية» سامراء نستريح في مدرستها ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات في السيارة. ثم ولجنا حرم التاريخ، يصحبنا معلّمو المدرسة الذين أولونا من أياديهم وأرونا من كرمهم وحسن أخلاقهم ما نذكره لهم بالشكر، فلولاهم ما رأينا شيئاً ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج في هذا العالم الواسع!

أي والله هو عالَم، هو شيء عظيم. سرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلاً (بالضبط) وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع إلى الدور العليا، وإن إلى الدور السفلى لمثلها، وإن هذا كله لنصف المدينة، وعلى الضفة الأخرى مثله.

أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه البرية الواسعة التي يضل فيها البصر مدينة عامرة، وكيف كان الناس يقطعونها، وإن بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتي عشرة ساعة على الراكب.

كان أول ما رأينا المسجد الجامع، وهو كبير جداً، لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنها، لم يبق منه إلا السور وهو مبنى من اللبن كسائر[1] الأبنية العراقية، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة، ووراء السور المنارة وتعرف عند الناس بالملوية أي المستديرة، وهي حلزونية الشكل سلّمها من

---

(١) سائرها: أي باقيها.

ظاهرها، مؤلفة من سبع طبقات، وتحتها قاعدة مربعه أقيمت حديثاً لتقويتها، طول الضلع من أضلاعها ٣٢ متراً، وارتفاع المنارة ٥٢ متراً (كما قالوا)، وقد بُنيت على غرارها منارة جامع ابن طولون في القاهرة[١]، ثم تُركت هذه الصفة في المآذن واتُّخِذ لها سلم من جوفها.

* * *

تركنا المسجد وسرنا في جهة واحدة كيلا نضلّ وسط هذه الأطلال. وكان حولنا تلال من التراب كانت قبل ألف ومئة سنة دوراً عامرة وقصوراً فخمة، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور كبير، أخبرَنا معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الواثق.

وعلا بنا على تلّ عال وقال: انظروا. فنظرت فلم أر إلا برية واسعة، لا شيء فيها. فقال: أمعن النظر وحدق في الأرض. ففعلت فرأيت شيئاً أدهشني وخفق له قلبي.

رأيت تلالاً صغيرة منتظمة على شكل دوائر متقاطعة على نمط هندسي بديع، تمتد إلى ما لا يدرك البصر آخره. فقلت وأنا مشدوه: ويحك، ما هذا؟

قال: ميدان سباق تجري فيه الخيل إلى أكثر من خمسة آلاف متر، فلا تغيب عن عيني الخليفة وهو يرقبها من مرقبه العالي.

* * *

(١) وهي باقية، في موضع مدينة القطائع التي بناها ابن طولون (حي السيدة زينب اليوم).

ومضينا... نمرّ على الأطلال، حتى بلغنا آثار سور كأنه سور مدينة. فقال دليلنا: هذا بلاط الخليفة.

فترجّلنا وسرنا في طريق باقية آثاره، ونحن نتخيل كم مرّ في هذه الطرق من خلفاء وأمراء، وكم شهدت من جلال وجمال، حتى بلغنا مصيف المتوكل، وهو أول ما استقبلنا من القصور. ونسيت أن أقول إن البلاط بلدة واسعة فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها، وفيها المسجد الكبير، وفيها البركة المتوكلية المشهورة (بركة البحتري).

فولجنا المصيف، وهو قصر كبير تحت الأرض فيه غرف كثيرة يفضي بعضها إلى بعض وفي ساحته بركة. وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الأرض، فلما هبطنا إلى جوف القصر كدنا نشكو البرد. وكان زميلنا أستاذ التاريخ يقصّ على الطلاب قصة القصر وبنائه وفنه وقيمته التاريخية، ولكن واحداً منا لم يكن يصغي أو يفهم شيئاً مما يقول، فكفّ وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحيّة، لا للعقل ومقاييسه الجافة وفلسفته الباردة.

كنا نتخيل هذا القصر وقد كان يعجّ بالحياة ويفيض بالحب. كنا نسمع الأصوات ونبصر الألوان ونشم عبق العطر، ونحس كأنّا نرى الخليفة ونشهد مجالس الأدب والغناء وخلوات الحب.

كم عاش في هذا المكان من عواطف! كم خفقت فيه من قلوب! كم امتلأ بالحياة! أفيودي ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة، ويشمله العدم ولا يبقى له وجود قط؟

أي امرئ عرف الحب وكابده وأدرك معناه، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه؟ لا ؛ إن ذلك كله موجود! موجود في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح، إنه خالد لا يفنى أبداً. إن في هذا القصر ذكريات جمة تحتويها هذه الجدران الخرساء وهذا اللبِن البارد، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه، إن فيه خفقات تلك القلوب.

إن سؤال الديار واستخبار الأطلال أقدم فنون الشعر العربي، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين؟ أتراهم كانوا عابثين؟ لا، إن في هذه الأطلال لحياةً... إن كل شيء في الوجود حيّ يذكرُ ويأمُل ويشعر ويحلم، ولكنه لا ينطق ولا يفكر.

آه، لو أن هذه الجدران كانت تنطق وتتحدث وتصف ما تشعر به!

* * *

وخرجنا من القصر ونحن نحس كأنا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا إلى عالم آخر، عالم تمتزج فيه الأحلام بالحقيقة، عالم شعري ساحر... فمررنا على جب واسع للماء خبّرنا دليلنا أن بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدّعون بأنه سجن ويختلقون عنه الأكاذيب.

وهؤلاء الأدلاء والتراجمة بلاء أزرق، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الإفرنج تاريخ الجامع الأموي في دمشق، فقال لهم ما نصه: "هذه هي المنارة التي بناها الوليد بن هارون

الرشيد لسيدنا عيسى[1]، ولذلك سُمّيت منارة عيسى"، وهم يكتبون في دفاترهم ما يقول فينشرونه على أنه كتاب علمي عن الشرق وأهله. وليس العهد ببعيد بتلك الكاتبة الفرنسية التي كتبت كتاباً عن دمشق قالت فيه: "ويخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبي في مكة ويرجعون ليناموا في دورهم". وما قبر النبي في مكة، ولا مكة في دمشق، ولا يخرج أهل دمشق ولا يدخلون، ولكن الحماقة ألوان والجنون فنون!

أقول: إننا سرنا إلى مسجد القصر، وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج منه آثاراً رخامية ومحراباً جميلاً حملها إلى ألمانيا. ثم انتهينا إلى البركة، ولست أكتم القراء أني كنت أظن أن البحتري يبالغ في وصفها على طريقة الشعراء الخياليين، وأقرر ذلك في دروسي الأدبية وأقول: ما عسى أن تبلغ هذه البركة حتى تظل دجلة كالغَيْرى منها تنافسها وتباهيها، وحتى تبدو في الليل كأن سماء رُكبّت فيها، وحتى إن السمك المحصور لا يبلغ غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها؟

فلما رأيت أنقاضها رأيت شيئاً عظيماً، رأيت بحراً، رأيت ميدان سباق! دائرة قطرها نحو مئتي متر، فأكبرتها وهي جافة، فكيف لو رأيتها وهي ممتلئة بالماء ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة وقد عُقد فيها مجلس الخليفة؟ إذن لرأيت أكثر مما قال البحتري، فرحم الله الشاعر، وألهم شعراءنا تخليد ما يرون

---

(١) لذلك ألفت كتابي «الجامع الأموي» الذي طبعته وزارة الأوقاف وتبيعه (هي) للسياح.

من جمال بلادهم وعظمة مصانعهم، على نحو ما خلّد البحتري البركة والجعفري وطاق كسرى.

ثم سرنا إلى قصر الخليفة الرسمي ووقفنا في إيوانه الكبير، وهو مبني على شكل إيوان كسرى ولكنه أجمل وأصغر. وقفنا صامتين خاشعين تتقاذفنا عواطف وذكريات لا يُدرى مداها، نتخيل هذا الإيوان وكم عُقد فيه من مجالس، وكم وقف فيه من ملوك، وكم كُتب فيه من تاريخ. نبصر المعتصم وقد أخذ كأس ماء ليشربها فأبلغوه أن امرأة مسلمة أسيرة في بلاد الروم صاحت: وامعتصماه!

امرأة أسيرة، وأمير المؤمنين يشرب كأسه هانئاً؟ امرأة تنادي: وامعتصماه، والمعتصم لا يجيب؟

إن هذا لن يكون!

وأرى المعتصم يخرج في الجيش اللجِب الذي تضطرب له سرّ من رأى، وتميد لثقله الأرض، وتصعق لهوله المرَدَة وترتجف الرواسي، حتى يحط على عمورية فيدكّها دكاً ويعود مثقلاً بالمجد والظفر والغنائم.

وأسمع أبا تمام ينشد آيته الخالدة التي لم يقل أعظمَ منها المتنبي[1]:

السيفُ أصدق إنباءً من الكُتُبِ ... في حَدّه الحَدُّ بين الجِدّ واللَّعِبِ
فَتْحُ الفُتوح تعالى أن يُحيطَ به ... نَظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخُطَبِ

---

(١) أبو تمام لا المتنبي هو الأستاذ الأكبر في الشعر العربي

يا يومَ وقعةِ عَمّوريةَ انصرفت عنك المُنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ
أبقيتَ جَدَّ بني الإسلامِ في صَعَد والمشركين ودارَ الشركِ في صَبَبِ

ثم أنظر حولي فأرى كل شيء قد تبدل:

تغيّرَ حُسْنُ الجَعْفَريِّ وأُنْسُهُ وقُوِّضَ بادي الجَعفريّ وحَاضِرُهْ
تَحَمّلَ عنهُ ساكِنوهُ فُجَاءَةً فعادَتْ سَواءً دُورُهُ ومَقابِرُهْ
إذا نحن زُرْناهُ أَجَدَّ لنا الأَسَى وقد كان قبلَ اليومِ يُبْهَجُ زائرُهْ
غدا موحِشاً قَفراً كأنْ لم يُقِمْ بِهِ أنيسٌ ولم تَحسُنْ لعينٍ مَناظِرُهْ[1]
كأنْ لم تَبِتْ فيهِ الخِلافَةُ طَلْقَةً بَشاشَتُها والمُلْكُ يُشرِقُ زاهِرُهْ
ولم تجمع الدنيا إليه بَهاءَها وبَهجتَها والعيشُ غَضٌّ مَكاسِرُهْ
فأين الحِجَابُ الصّعْبُ حيثُ تَمَنّعَتْ بِهَيبتِها أبوابُه ومَقَاصِرُهْ
وأين عميدُ النّاسِ في كلّ نَوْبَةٍ تنوبُ، وناهي الدّهرِ فيهم وآمِرُه؟[2]

لقد هجرته الحياة ونأى عنه النعيم وجفاه كل صديق، حتى دجلة. دجلة أعرضت عن القصر ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه، وجفته وكانت مع الدهر الدوّار والزمان الغدار.

حتى دجلة التي أفاضوا عليها المجد ووضعوا فيها الحياة،

---

(١) في الديوان رُوي أول هذا البيت: «ووَحْشَتَه حتى كأنْ لم يقم به»، وقبله:

ولم أنسَ وحشَ القصر إذْ رِيعَ سِربُهُ وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذِره
وإذْ صيح فيه بالرحيلِ فهُتِّكت على عَجَلٍ أستارُهُ وستائِرُه

والقصيدة في رثاء المتوكل (مجاهد).

(٢) من قصيدة البحتري، وهو صاحب أجمل أسلوب في الشعر العربي.

وأعطوها أكثر مما أخذوا منها، حتى دجلة التي جرت ملايين السنين، فلم تجد أكرم ولا أعز ولا أعظم من أصحاب هذا القصر وبُنَاته... حتى دجلة نسيت وخانت[1]!

* * *

ثم ودعنا البلاطَ وسرنا، وقد أودعناه قلوبنا وصببنا فيه نفوسنا ودموعنا، سرنا في الشارع الأعظم نصف ساعة في السيارة، والشارع بيّن لاحب عرضه مئة ذراع، والشوارع تتفرع عنه في نظام عجيب وهندسة محكمة، والبيوت قائمة على الجانبين، وقد استحال أثرها إلى تلال من التراب كأنها القبور.

فمررنا على معسكر أشناس، وهو أشبه بميدان فسيح جداً حوله سور، حتى انتهينا إلى المسجد المعروف اليوم بجامع أبي دُلف، وهو أكبر من مسجد المتوكل، وفيه رواق قائم على خمس قناطر ومنارة كالملوية ولكنها أصغر منها، فوقفنا عليه. وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، فانتهت الرحلة هنا، وعدنا ونحن صامتون خاشعون... وقد علمنا لماذا يريدون منا أن نتجرد من ماضينا؛ ذلك لأننا لا نستطيع أن نبني المستقبل الفخم إلا على أنقاض الماضي الفخم.



(١) غيّر النهر مجراه وابتعد عن القصر مسافة كبيرة وقد كان يمر أمامه.

على إيوان كسرى

كتبت سنة ١٩٣٧

خرجنا من بغداد على الدراجات، فسلكنا على «حيّ البتاويين» ظاهر «الباب الشرقي»، وجزنا على قصوره الشم التي تتكئ فيها الأرستقراطية الناعمة على الأرائك سَكرى بخمرة الذهب، وسرنا إلى «الهنيدي» في الطريق التي تنام على بسط الحقول السندسية يحرسها صفان من النخيل، حتى انتهينا إلى المعسكر البريطاني[1] صرح أكاسرة اليوم، فتركناه وأممنا صرح أكاسرة الأمس لنقف عليه ذاكرين معتبرين.

عبرنا نهر «ديالي» وخلفنا القرية جاثمة على كتف النهر قد دلّت رجلَيها في مائِه، واستقبلنا الفلاة الواسعة فما عدنا نرى إلا الفضاء. حتى إذا سرنا فيها ساعتين طلعت علينا قرية سلمان، تلوح على حاشية الأفق تَضِحُ وتغيب، ثم تبيناها ورأينا قبة مسجدها واضحة، ورأينا بجانبها بناء ضخماً كأنه جبل، فقلت: ما هذا؟

قال صحبي: هذه قبة سلمان الفارسي، وهذا إيوان كسرى.

---

(١) كان كذلك يوم كُتب هذا الفصل، فصار الآن «معسكر الرشيد» ترفرف عليه الراية العراقية العربية، فالحمد لله.

فقلت: يا للعجب! أطاف سلمان ما طاف حتى استقر قبره بجانب الإيوان، فغدوا متلاصقَين وبَدَوا متعانقين؟

وحثَثْنا «الدرّاجات» إلى القرية، فبلغناها بعد ساعة.

كانت قرية صغيرة نشأت على قبر سلمان رضي الله عنه، ليس فيها -إلا مسجده- شيء يذكر، أما الإيوان فهو في ظاهر البلد، متربع على ظهر الفلاة وحيد معتزل، مطرق حزين.

* * *

وقفنا عليه فإذا هو «طاقٌ» عالٍ متهدّم، وجدارٌ شامخ متصدّع، وإذا هو ضخم فخم ولكنه عارٍ موحِش، ليس فيه صورة ولا نقش؛ لا صورة أنطاكية التي تروع بين روم وفرس، ولا أنوشروان يزجي الصفوف تحت الدّرفس، ولا عراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس، من مشيح يهوي بعامل رمح ومليح من السنان بترس[1]...

لقد محا الدهر الصورةَ كما محا أهلَها، ودار الزمان دورة

---

(١) من قصيدة للبحتري مطلعها:

صُنتُ نفسي عمّا يدنّسُ نفسي ... وترفّعتُ عن جَدا كل جِبْسِ

وهي من روائعه، والأبيات التي وردت الإشارة إليها من القصيدة هي:

فإذا ما رأيتَ صورةَ أنطا ... كيَةَ ارتَعْتَ بين روم وفُرْسِ

والمنايا مواثِلٌ، وأنوشَرْ ... وانَ يُزجي الصفوفَ تحتَ الدُّرَفْسِ

وعراكُ الرجال بين يديهِ ... في خُفوتٍ منهم وإغماضِ جَرْسِ

من مُشيحٍ يَهوي بعامِلِ رُمحٍ ... ومُليحٍ من السِّنانِ بتُرْسِ

وعامة القصيدة في وصف إيوان كسرى (مجاهد).

أخرى، فأصبح حاضر البحتري ماضياً وعيانُه خبراً؛ ذلك لأن الماضي نقطة واحدة، تتلاقى فيها الأبعاد وتضيع المسافات وتفنى الدهور.

نقرأ قصيدة البحتري ونرى الإيوان، فنحس أنهما قد التقيا في عالم الماضي وضاع ما كان بينهما من عصور، كما التقت آثار «سر من رأى» بأطلال بابل فكان حكمهما في الخيال واحداً وأثرهما في النفس واحداً، وكما التقت في أبصارنا -ونحن قادمون على القرية- قبةُ سلمان بالإيوان.

ومن لعمرك يدرك الزمن الذي كان بين آدم ونوح، وإبراهيم وموسى، وبلقيس والزباء، وهوميروس وأفلاطون، وحروب طروادة وفتوح الإسكندر؟ إن الحوادث كلما أمعنت في المضيّ ضاعت من بينها الأزمنة وامّحت الأبعاد.



وليس يَهيجُ النفسَ ويثيرها مثلُ أطلال الماضي والوقوف بآثار الغابرين، ففيها روعة البقاء، وهول الفناء، وعبرة الدهر. وهي نوافذ تطلّ منها النفس على عالم المجهول الذي تحنّ إليه أبداً ولا تَني تقرع بابه، فتتحرر فيها ساعة من قيود المادة وتطير في مسارب الأحلام.

ولقد وقفت على الأهرام، ومررت على الحديبيّة، وجلست في العقيق، وعرجت على حطّين، وزرت بَعْلَبَك، فكان شعوري في ذلك كله كشعوري اليوم وأنا في المدائن أمام إيوان كسرى،

أستعظم الأثر وأعجب بجلاله وأكبر القدرة التي أنشأته، ثم أعود بفكري إلى الماضي، فأحس بأن صفحته تفتح أمامي، فأرى حقيقةً مشاهَدةً كلَّ ما قد قرأت في الكتب، وأتخيل أني مع الغابرين أسمع وأرى، فأراني قد عشت دهوراً، ثم أقابل وأعتبر، ثم أذهل عن نفسي وأجول بفكري وخيالي في آفاق كثيرة لم أرَها من قبل.

في الآثار الباقية والأمم الماضية يلتقي أعظم شيئين وأجلّهما: الزمان والمكان، فتلمس القرون تنحدر على صخر الهرم، أو أعمدة بعلبك، أو آجرّ الإيوان؛ هذا الآجرّ الذي حمل أعباء القرون السبعة عشر، يا لروعته وجلاله!

إني لأحتقر نفسي وأنا قائم بقامتي القصيرة الهزيلة حيال هذا الكائن الجبار الهائل، ثم أعود فأرى كل شيء دوني حقيراً، أنا الحيّ وأنا الباني، وما هذه كلها إلا أثر من آثاري ليس لها لولا فكري وجود، ولا لوجودها معنى. ثم أراني أحقر منها وأصغر بجنب الله الباقي، وأرى هذا الفكر وما أنتج مخلوقاً من أصغر مخلوقاته، لا إله إلا هو.

وأطَفتُ بالديوان ووقفت على بابه، ثم دخلت إليه من الصحراء فإذا... فإذا أنا قد خرجت إلى الصحراء. الصحراء الصامتة صمت الموت، الموحشة وحشة القبر، الممتدة امتداد الزمان.

وقفت أستنشق عبير المجد وأتسمّع نشيد العظمة، فما سمعت إلا صفير الرياح ولا نشقت إلا رطوبة الفناء.

لمست الإيوان فما أحسست إلا برودة الحجر، تسلقت الجدار حتى كلّت رجلاي ولم أبلغ نصفه، فجلست على لبنة بارزة لأستريح، وتلفّتُّ، فإذا الأفق الواسع الرحيب، وإذا الناس كالنمل، وإذا القرية كأنها كومة من الحجارة مكوّمة في الأعماق، وإذا دجلة تجري بعيداً تلبس حُلّة من نور الشمس فتبدو لامعة تزيغ منها الأبصار، وإذا أنا وحدي معلق بين السماء والأرض، فغثت نفسي وأخذني الدوار وهممت بالسقوط، فأغمضت عينيّ كيلا أرى شيئاً.

أغمضت عيني وفتحت قلبي، فرأت البصيرة ما لا يراه البصر: رأيت أني قد ذهبت أتخطى أعناق القرون وأطوي سجلّ الزمان، وأدير بفكري دولاب الفلك فيكر راجعاً. ازَّخْرَفت هذه الجدران العارية وأخذت زينتها، عادت هذه الأبواب فأسدلت عليها ستر الوشي والديباج، وتحلّت هذه السقوف بالصور والنقوش وتدلت منها سلاسل الذهب تحمل الثريات المرصعة باللؤلؤ.

عاش الإيوان، وقام في صدره سرير أنوشروان، ورجع المجد وعاد السلطان. وحلّت الحياة في هذه الصحراء فنبعت المدائن والقصور من الأرض نبعاً، ونبتت منها نباتاً، فنمت في لحظة وأورقت وعلت واستطالت، ولوّن الخيالُ هذه البريةَ الكالحة بألوان الزهر فعادت حدائق وبساتين كانت لهذه المدائن كالإطار، فرأيتها أعظم المدن وقصورها أفخم القصور، والإيوان أجلّ صروحها وأعلى ذُراها.

ورأيت هذه الأبواب (التي كانت منذ ساعة تفضي من الصحراء إلى الصحراء) مفتَّحةً للرياح والذئاب، قد قام عليها

الحُجّاب، ووقفت دونها الملوك، وحلّ على أعتابها المجد. والجدران التي كانت عارية مصدَّعة قد شمخت وبذت وعزّت، حتى غدت والطير تخشى أن تطير فوقها أو تحوّم في سمائها.

ورأيت دجلة التي كانت منذ ساعة تجري في البادية بعيدة، بعيدة عن الإيوان معرضة عنه، لا تلتفت إليه ولا تأبه له، قد غدت ساقية تمشي خاضعة وسط المدائن، وتنحني لتعقد على كتفَيها القناطر والجسور، وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصور، وهي تستنقع فيها في أمسيّات الصيف الحارة!

ورنوت بعيني إلى هناك، إلى الحيرة، فإذا الخَوَرْنق السامق يعنو للإيوان كما يعنو صاحبه لربه، ورميت ببصري إلى بعيد، إلى الجزيرة، فإذا فيها أشباح تجيء وتروح خلال الضباب، تموج كأنها في بحر واسع وكأن خيامها سفائن يحملها الموج ويمشي بها مدّ وجزر، ولكن هذه الأمواج تنكسر على صخرة الإيوان ثم ترتدّ ضعيفة وانية، والإيوان مشمّخرٌ عاتٍ. لا ملك أكبر من ملكه، ولا سلطان أعظم من سلطانه، ولا إنسان أعز من ربه.

* * *

ولكن... مَه! إن في البادية لشيئاً جديداً، إنها تضطرب وتهتز، إن فيافيها تتمخض بالحياة.

ها هو ذا النور يشق الضباب الكثيف، حتى يلمع كالبرق الخاطف بين قصور المدائن وتحت أقبية الإيوان. لقد ضرب محمد ﷺ صخرة الخندق فأضاءت المعجزة الإيوان، فوعد أتباعه وقال لهم: هذا الطريق.

يا للعجب العجاب!

إن هذه القرية الملتفة في ألحفة الرمل، النائمة على صخور الحرة، المتوسدة سفح أحد وجوانب سِلع، تريد أن تأكل المدائن! بلغ كسرى الخبر فضحك وسخر، ثم جاء كسرى الكتاب فعبس وبسر وأعرض واستكبر، ومزق كسرى كتاب سيد العالم.

لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ: «ليمزقنّ الله ملك كسرى»[1].

* * *

وفتحت عينيّ، فإذا الحلم قد تصرّم.

غاضت المدائن في الأرض، ونزعت الجدران ثيابها، وابتلعت الصحراء زهرها وورها وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الأنقاض، جاثمة على ظهرها، قد حطمها الكِبَر وثقلت عليها السنون، فانحنت حتى تسلّق صبيةُ القرية سطحَها يلعبون عليه.

---

(١) وقد تمزق فلا يمكن أن يرقّع، وذهب فلا يعود. ولقد حاول «الشاه» بالأمس القريب أن يقيمه فاحتفل بمرور ألفين وخمسمئة سنة على هذا الملك، وعَمِيَ عن الإسلام الذي أشرقت في هذه الحقبة شمسه وعمّ الأرضَ نورُه، وأنفق من أموال الشعب الفقير ما ناء بحمله هذا الشعب، ودعا أهل المشرق والمغرب ليريهم جلال هذا الملك وبقاءه، فلم يمهله الله إلا سنوات معدودة حتى زال ملك عُبّاد النار. أما دين الله الذي فيه النور فهو الباقي، وإن الأرض لله يورثها من يشاء.

الصبية يلعبون على سطح الإيوان! أين كسرى يرى ما صار إليه إيوانه؟

أبناء العرب يتلهون بمجلسك يا شاهنشاه! لقد قُوّض المجلس وثُلّ العرش وهوى التاج، فما أنجدك الجند ولا أغنى عنك الغنى، ولا حمتك الحمية ولا آواك الإيوان!

لقد مزق البدوُ ملكَك يا كسرى، وما هذا عجيباً؛ فالتمزيق أسهل من الترقيع، والهدم أهون من البناء. ولقد هدم البرابرة من قبلُ عرشَ الرومان، غير أن هؤلاء البدو -يا ملك- أسسوا حضارة خيراً من حضارتك، وبناءً أجلّ من بنائك، وحكماً أعدل من حكمك. لقد أثمرت حضارتهم حضارة قرن العشرين، وحضارتك لم تثمر شيئاً.

لقد بنت ديمقراطية عمر، الذي كان ينام على التراب، ويتغطى بالبرنس، ويؤدب بالدِّرّة، ويعين الفقير، ويخدم العجوز، ويُنصف مِن نفسه... لقد بنت ديمقراطيته دولة. أما جبروتك وعظمتك الجوفاء واستعبادك الناس، فلقد هدمت دولة.

هذه بغداد الإسلام فيها أربعمئة وخمسون ألفاً[1]، وهذا إيوانك تصفر فيه الرياح الباردة صفير الفناء المرعب، وتنشد فيه الطبيعة نشيد الموت. مَنْذا الذي كان يفكر أيامَ عز الإيوان أن صبية العرب ستلعب على أنقاضه؟

مَنذا الذي يفكر اليوم بأن أطفال طرابلس ستقفز على أطلال

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٧.

دار موسوليني[1]؟ لا تتعجبوا من شيء؛ إن الليالي يَلِدْنَ كل عجيبة!

وليعتبر الطغاة، فلقد كان كسرى (يوم كان كسرى) أضخمَ سلطاناً وأعظمَ بنياناً وأكثر أعواناً، فأباد الزمانُ السلطانَ، ودكّ البنيانَ، وأهلك الأعوانَ.

* * *

اعتبروا، فهذا صرح كسرى خالٍ موحش، وهذا قبر سلمان عامر مأنوس.

قد مات القصر وعاش القبر، قصر كسرى شاهنشاه الذي كانت تقوم على بابه الملوك...

... ... ضاحين حسرى   من وقوفٍ خلف الزّحامِ وخُنْسِ[2]

قد مات وغدا قبراً في الفلاة، وهذا القبر، قبر فارسي من عامة الناس، يصبح مثوى الحياة، تلتفّ به البيوت ويؤمّه الزائرون ويقفون حياله خاشعين، ثم يعودون ولا يلتفتون إلى الإيوان وبينهما ثلاثمئة ذراع!

أين كان سلمان، من كسرى أنوشروان؟ أين كان من وزرائه وأتباعه؟ وأين كان من خدامه وحشمه؟

---

(١) لقد تحقق نصف الحلم، فاستقلت طرابلس وطرد منها الطليان.

(٢) أول البيت: «وكأن الوفود ضاحين حسرى»، وهو من القصيدة السينية ذاتها. وقوله: ضاحينٍ، أي واقفين تحت الشمس، و«حَسرى» جمع حسير، وهو الذي كلّ وتَعِبَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (مجاهد).

صَهْ! لقد خلد سلمان بالإسلام فكان أعظم من كسرى.

* * *

أما بعد، فقد تكون الأهرام أضخم وأفخم، وأعمدة بَعْلَبَكّ أجلّ وأجمل، ولكن للإيوان معنى آخر. هنا كان يستقر جلال الماضي كله، هنا كانت عظمة الملك وجبروت السلطان، هنا كان الذي يستعبد الناسَ فيؤَلّهه الناس، لم يبق من ذلك كله شيء!

وكانت الشمس قد جنحت إلى المغيب، فنزلت ووقفت أودع الإيوان، فاقترب مني سائل أعمى وجعل ينفخ في ناي معه نغمة حزينة مؤثرة، فكان لها في تلك الساعة، في صمت الصحراء ووحشة الإيوان وغروب الشمس، أثر في نفسي لا يوصف، فقلت: آه، ليتني كنت شاعراً!



صورة...

نشرت عام ١٩٣٧

إن وجدتم في هذه الكلمة صراحة
في الوصف فلا تلوموا الطبيب، فإنه
يصف المرض ليعيّن الدواء.

كان شاباً متأنّثاً قد أصيب بمرض التجمّل، فلم يكن يجيء إلى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس[١] ليوم زفافه، قد صفف شعره ودهنه وعطره ولبّده وعقربه على صدغَيه، وجمّل وجهه وصقله وصنع به ما لست أدري، وكشف عن أعالي صدره وأحاط عنقه بهذه العقدة التي يفتَنُّ في عقدها واختيار لونها واتساقها مع الحلة التي يلبسها افتناناً، ولا يزال أبداً يمدّ يده إليها يتلمّسها ويصلحها ويطمئن عليها.

وكان إذا نظر غض الطرف من الحياء ودانى بين جفونه، وإذا تكلم تكلم بصوت حالم لين كأن ألفاظه تقول شيئاً ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر، تقول: إن رجولة صاحبي رجولة مزورة!

وإذا مشى تثنّى وتخلّع وتكسّر، وماج جسمه مَوَجاناً، وذهب كل عضو منه في ناحية كأن جسمه متفكك قد تقطعت أوصاله

---

(١) العروس في اللغة للذكر والأنثى.

وفصمت عراه وانحلّت لوالبه. وإذا دعوته أقبل إليّ يتهادى ويميل، فإذا وصل إلى حيث أكون وجد أقرب متكأٍ فاستند عليه، كأنه بناء لا يقوم إلا إذا أسندته بدعامة، وإذا كلمته خجل كأنه فتاة في الخدر، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلعه الخجل... فكنت أزعق في وجهه من الغيظ ثم أطرده طرداً.

ولم يكن ينصرف إلى علم أو يقبل على درس، لأن عقله قد سال على جوانب جسمه خرقاً وثياباً ولم يبقَ منه في داخله ما ينفع لعلم أو درس، فهو دائماً ينظر في عطفيه، ويتأمل ثيابه، ويُخرج من جيبه مشطه ومرآته، ولولا بقية من حياء لأخرج أبيضه وأحمره وقلم شفتيه.

وكنت أراه في باحة المدرسة فأراه غريباً عن هؤلاء الشباب، لا يطيق حراكاً ولا يحسن لعباً ولا يدفع عن نفسه اعتداء، وما فيه من الرجولة إلا اسمه وبذلته.

* * *

وحاولت إصلاحه، وتعهدته بالنصح والإرشاد، فكنت كمن ينفخ في غير ضرم، فأيست من إصلاحه وكرهته وأبغضته، وجعلت أزوي بصري عنه وأتناساه وأهمله. ثم افتقدته فلم أجده، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة.

ومر شهران، ثم رأيت في مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية يلبس الثوب العسكري وعلى وجهه طابع الرجولة: له شاربان كاملان، وأثر اللحية ظاهر على خديه، والقوة والصرامة باديتان في عينه وملامحه. وكان قوي النظرات

صعّاقاً جهير الصوت، ذكياً مقبلاً على الدرس، فطناً ألمعيّاً، وكان سريع الحركة جمّ النشاط، إذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة يطأ الأرض وطأً شديداً وقد نصب قامته ورفع رأسه، فإذا قام بين يديّ قرع رجلاً برجل ثم رفع يده بالسلام، لا كما يرفعها مثلي أو مثلك بل كما يرفع يدَه الجنديُّ بالسيف يستلّه من قرابه، وإذا كلمته أجاب بجرأة وأدب. وكنت أراه في ساحة المدرسة، فأراه -على اجتهاده وإقباله على العلم- قوياً نَشِطاً يصارع الطلاب ويباطحهم، فإذا تمكن منهم وعلا عليهم عفا عنهم وأبقى عليهم، فكنت أعجب من قوته ونبله وعلمه وفضله، وأكبر فيه هذه الصفات.

* * *

ثم إنني أحببت أن أشجّعه وأضرب منه للطلاب مثلاً فتكلمت وأثنيت، وقلت: كم بين هذا وذاك من فرق!

فصاح الطلاب: ومَن هذا ومَن ذاك؟ إنهما شخص واحد.

قلت: ويحكم! فأي معجزة هذه التي بدّلته شخصاً آخر وأنشأته إنشاء جديداً؟

قالوا: يا أستاذ، إنه تدرب على «الفتوّة».

* * *

يوم الفتوة في بغداد

نشرت سنة ١٩٣٩

ذلك هو يوم الجمعة ٢٧ كانون الثاني، الذي انتقلت فيه بغداد كلها فاستقرت في شارع الرشيد وشارع غازي، لترى مركب الفتوّة الذي يصل بين غازي والرشيد، فينشئ المجد الجديد على أساس المجد التليد.

وقد أتى الناس من كل فج عميق ليشهدوا بأعينهم كيف غدا أبناؤهم أسوداً صغاراً، أشبالاً يدافعون عن الحِمى ويحمون العرين... ويبصروا ببصائرهم الآتي المجيد، والمستقبل الزاهر، وقد أشرق فجره من عيون أولئك الفتيان التي تبرق بريق الحماسة والإخلاص، وقلوبهم التي تنطوي على التضحية والثبات، وألسنتهم وهي تنشد النشيد الذي يوقظ الموتى ويصبّ الحياة في الصخر الصلد، وأيديهم التي تهز البنادق، تقول بلسان حالها: إنّا نحقق ما نقول!

مرحى يا فتيان العراق، عشتم للعروبة وسلمتم للإسلام.

❊ ❊ ❊

أقبل الناس على شارع الرشيد قبل أن تقبل الشمس بوجهها

على بغداد فملؤوا جوانبه، واستأجروا مداخل المخازن وشرفات المنازل والفنادق، حتى بلغت أجرة المقعد الواحد ربع دينار، ولا ترى في شرفة مقعداً ولا على رصيف مكاناً. وتعلق الناس بالأعمدة، وأشرفوا من الأسطحة، وكانت الوجوه في بِشر وانطلاق كما كانت الطبيعة متهللة باسمة في هذا اليوم المشهود، والشمس بازغة ساطعة، والأنس في الأرض وفي السماء.

وانتظر الناس ساعات لا يملّون ولا يضجرون.

وكنت في غرفتي في الأعظمية أهم بالنزول إلى بغداد، ثم يردعني خوف الزحام، وكراهية الاختلاط، وخشية أن يبتلعني هذا اللجّ البشرى الهائل.

وكنت أنظر في ركام الكرّاسات التي تبلغ المئات، والتي جمع فيها كل تلميذ ما يستطيع من الأخطاء والحماقات لأموت بتصحيحها وتقدير درجاتها، فلا أمسها ولا أدنو منها، وإنما أنصرف عنها أفكر في بلدي وأهلي.

أأهجع آمناً في بغداد وآنس مطمئِنّاً، وأهلي في دمشق يمشون على النار لا يدرون أإلى موت أم حياة؟ أأستمتع بالجمال، وأتذوّق الحب، وأنفق الأماسيّ الهادئة في مسارب الأعظمية، أساير «الشط» وأتفيأ ظلال النخيل، والشام قد ثار من تحته البركان، وزلزلت منه الأركان، وهبّ أهله هبّة المستميت يريدون الحياة كاملة أو الموت صرفاً زعافاً؟

فكرت في ذلك فامتلأت نفسي كآبة وحسرة، فقمت على غير شعور مني وانطلقت إلى بغداد. وما أدراك اليوم ما بغداد؟

بلغت «باب المعظم» وعهدي بالمكان أن فيه شوارع وميداناً، فإذا هو بحر من الخلائق يموج بعضها في بعض، وقد غرق في هذا البحر الشارع واختفى الميدان، فوقفت حائراً لا أتقدم ولا أتأخر.

وطال بي الوقوف، وخشيت أن أبقى كذلك إلى المساء، فتشددت وقلت: ويحك يا نفسي! لماذا الجبن؟ وعلامَ التأخر؟ ولماذا كنتِ تدفعينني إلى أن أمارس ألوان الرياضة إذا كنت لا تستطيعين النجاة في مثل هذا اليوم العصيب؟

وظننت نفسي قد اشتدت، فشمرت عن ساعديّ وأقبلت أدفع هذا وأزيح ذاك، وكلما دفعت عني واحداً حلّ مكانه عشرة، فخارت قواي وأيِستُ من النجاة، واعترفت لنفسي بأني لم أبلغ مبلغ عنترة (عنتر القصة) الذي يقبض على الرجل فيرفعه بيده فيضرب به الآخر فيقتل الاثنين!

فوقفت فاشتد عليّ الضغط من كل جانب حتى أحسست كأن أحشائي ستخرج، وضاق نَفَسي، ولكن كل ضيق إلى فرج، فلم يكن إلا أن فرج الله عني فبعث رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فحملني إلى الفندق الذي أريد.

* * *

وكان في شرفة الفندق إخوان لنا ينظرون، فقعدت معهم، ولبثنا ننتظر الموكب ونتحدث عن الفتوة في العراق ونستمع إلى أحاديث الإخوان، وهي للأديب كنز لا ينفد.

وأشهد أن في العراق فتوّة وشباباً، وأنه شعب عرف طريق الحياة فسلكه. ولقد رأيت من مظاهر الفتوة في بغداد ما جعلني أبكي من فرط التأثر. رأيت في بغداد طفلاً يدرُج على باب منزله، لم يتعلم المشي ولا النطق، وهو يحاول أن يخطو خطو الجند ويوعز إيعاز القائد: يُسّ، يُمْ... أي: يسرى، يمنى...

رأيت في بغداد أطفال المدارس الابتدائية يسيرون سير الجنود، يقودهم مدرس بلباس ضابط يدربهم على فنون القتال. وذهبت مع الطلاب إلى معسكر الإنكليز في «سن الذبان» لمباراة رياضية، فرأيتهم قد قلبوا المدينة الإنكليزية إلى حي من أحياء العرب وأفاضوا عليها روحهم وشبابهم وفتوتهم، فقلت: تبارك الله! إذا كان جيش من لاعبي الكرة لا يتجاوز الخمسين شاباً فعل هذا كله، فكيف لو جاء الجيش العربي، جيش المستقبل؟

وسألت الطلاب في الامتحان هذا السؤال الأزلي: ماذا يريد أحدكم أن يكون؟ فكان جواب الأكثرين أنهم يريدون أن يكونوا جنوداً، مشاة وركباناً، وبحّارة وطيارين، يدافعون عن أمتهم ويذبون عنها كل طاغية أو جبار ينبع من الأرض أو يهبط من السماء.

ورأيت أثر الروح العسكرية واضحاً في الطلاب، فالطاعة من غير استخذاء، والحرية من غير تمرد، والنظام من غير جمود، تلك هي صفات طلاب العراق.

وإن في مدرستنا الغربية لثلاثمئة طالب، والمدرسة سائرة سير الساعة المتقَنة وليس في إدارتها إلا مدير ومعاون، مع أن

مثل هذا العدد يحتاج في دمشق إلى عشرة ضباط (معيدين)، ثم لا تكون المدرسة كالساعة وإنما تكون كالبركان الذي يهدد كل لحظة بالانفجار[1].

فيا ليت شباب دمشق يعرفون الروح العسكرية[2]، كما عرفها أشقاؤهم شباب العراق.

* * *

لبثنا ننظر إلى الضحوة الكبرى والناس لا يزدادون إلا تدفقاً، فكأنهم سيول تصب في هذا الخِضَمّ العظيم، والشارع يموج بالناس موجاً ويزخر بالخلائق، وكلهم يتطلع وينظر، وكلهم يسأل: متى يأتي الموكب؟ وعمال الشركة الأميركية للسينما ماثلون بآلاتهم في الشرفات والزوايا ليصوروا معالم الحياة في بغداد.

وإن البحر ليموج ويزخر، وإن أمواجه لتصخب وتضطرب، وإذا بالمعجزة قد وقعت، فانشقّ كما انشقّ البحر لموسى، وانفتح الطريق، فنظر الناس ونظرنا، فإذا الأعلام العربية تلوح بألوانها الأربعة التي تجمع شعار دول الإسلام كلها، بأُمَيّتها وهاشمها وعباسها، وترمز لفضائل العرب كلها:

بيضٌ صحائفُنا سودٌ وقائعُنا ... خضرٌ مرابِعُنا حمرٌ مواضينا

وإذا الموكب قد لاح من بعيد كما يلوح الهلال الهادي للتائه الآيس، ويسطع كما يسطع نجم الأمل في ظلمة القنوط، وإذا

---

(١) كان ذلك حين كُتب المقال.

(٢) قد عرفوها الآن، أعني حين نُشر هذا الكتاب.

موسيقاه القوية تدوي في الآذان فيكون لها أثر في النفوس أحلى من نداء الحبيبة في نفس المحب المشوق.

فحبس الناس الكلمات، ووقفوا الأنفاس يتطلعون ويترقبون، والموسيقى تعلو والفتيان يتقدمون حتى وصلت طليعتهم... فما استطاع ذو شعور إمساك دموع الفرح والرقة والتأثر أن تسيل، وارتجّت الأرض بالتصفيق والهتاف، كما ارتجت من قبل بهذه الموسيقى القوية المحبوبة وهذا النشيد الذي يُسمع من خلاله صوت المستقبل البارع وتلوح في أثنائه خيالات المعارك المظفرة.

وكان الفتيان أطهاراً مثل الزهر اليانع، لدناً كأغصان الروض، ولكنهم كانوا أقوياء كدوح الغاب أشدّاء كأسود العرين، وكانوا يسيرون صفوفاً متعاقبة على عرض الشارع، مرفوعة رؤوسهم، منتصبة قاماتهم، موزونة خطاهم، على أكتافهم بنادقهم وعدة قتالهم.

* * *

لا والله ما أحسست بالعجز مرة عن وصف ما أرى مثل عجزي اليوم. ومَنذا الذي يقدر على وصف هذا الشيخ الهِمّ ذي الشيبة السائلة على صدره وهو يلحظ حفيده الصغير، يحمل البندقية ويمشي مختالاً مزهواً يحلم بأمجاد المستقبل ويذكر ما درس من أمجاد الماضي، فلا يطيق منع الدموع أن تسيل من عينيه وتتحدّر على لحيته البيضاء.

إني لأسمعه يحمد الله على أن لبلاده جيشاً من أبنائها ولم يكن يرى إلا جيشاً واغلاً أو دخيلاً.

ومَنذا الذي يقدر على وصف هذه الأم التي أمسكت بيد طفلَيها الصغيرَين وهما يتواثبان ليلحقا بالموكب ليريا أخاهما، وطفقت تدعو الله دعاء هامساً يتصعد من خلال الزفرات أن يحفظ لها ابنها وللوطن بنيه: "يا رب سلّم، ما شاء الله كان... يا رب سلم..." وتبكي!

ومَنذا الذي يقدر أن يصف شارع الرشيد في هذا اليوم؟

يا أيها الرشيد! قم ترَ المجد الذي بنيته لا يزال قائماً، قم ترَ الأحفاد قد نهضوا يسلكون طريق الأجداد، قم ترَنا لم نُضِع الأمانة ولم نُهلِك التراث، قم ترَ مجد غازي يتصل بمجدك كما اتصل الشارع بالشارع[1] فعاد مهيعاً واحداً.

هؤلاء -يا مولاي- عدة المستقبل، وهذا الجيش وهذه الآمال.

* * *

وفكرت فجأة في بلدي وأهلي... نحن هنا في فرحة والنار مشتعلة في فلسطين، والنار توشك أن تلتهب في الشام!

أي مصيبة لم يرَها الشاميون وأي خطب لم ينزل بهم؟ أما خرّب الأقوياء بلادَهم ضرباً بالمدافع وقصفاً بالحديد وحرقاً باللهيب؟ أما أخذوا ذهبهم وأبدلوهم به ورقاً أقفرت به الخزائن وافتقر به ذوو الغِنى واليسار؟ أما قطعوا البلاد حكومات، وجعلوا

---

(١) أي شارع الرشيد وشارع غازي.

من القرى دولات، وقسموا الناس بَدَداً ليجعلوهم طرائق قِدَداً؟

أما صبروا على هذا كله؟

بلى، لقد صبروا حتى لم يبقَ في قوس الصبر منزَع، واحتملوا ما لا يحتمل. فلما نفد الصبر وبان طوق المحتمل هبّوا هبة الحليم إذا غضب، ويا ما أشدّ غضب الحليم!

أنكون نحن هنا في فرحة، وأهلنا في الشام في ألم؟

وكدت أشعر بالحزن في قلبي، ثم قلت: لا، إن هذا هو الجيش الذي يجب أن يفرح به قومي. إن بطولة العراق وفتوّة العراق صفحة من سفر المجد العربي، كما أن تضحية فلسطين وجهاد دمشق ونهضة مصر صفحات منه أخرى. إن هذه كلها قوى متحدة تتوجه وجهة واحدة.

وماذا تخاف؟

الرصاص؟ لقد فتح له أهلوها صدورهم. المدافع؟ لقد أعدوا لها منازلهم. اليتم والثكل؟ لقد تعوده أبناؤهم وأمهاتهم.

إنهم يريدون أن يحيوا حقاً أو يموتوا. فهل يُغلب شعبٌ وطّنَ نفسه على الموت؟

وكان جيش الفتوة لا يزال يسير، والأرض ترتجّ بالموسيقى والنشيد والهتاف والتصفيق والدعاء والبكاء، فعاد الأمل إلى نفسي قوياً، هذه «بيه مونت» الوحدة العربية، هذه «بروسيا» العرب، هؤلاء عدة المستقبل، وهذا الجيش، وهذه الآمال.

فيا أهل دمشق، ويا أهل فلسطين، ويا أيها العرب في قاصٍ من الأرض ودانٍ: اطمئنوا فإن لكم جيشاً.

* * *

ولما جاوز جيشُ الفتوة شارعَ الرشيد واتجه إلى شارع غازي ماجَ البحر واضطرب، وتدفقت وراءه الجموع، وأسرعت أنا إلى الأعظمية لأدرك صلاة الجمعة.

وكانت نفسي تضطرم بأجمل العواطف وأبهى الصور، ولكن جمالها لم يستتمّ في نفسي. إن في الموكب لنقصاً ظاهراً؛ إن فيه لعيباً أفسد رواءه وأضاع بهجته. لقد تلطخ بالوحل بياضه وتدنس طهره... أفما كان في الإمكان أن يقدِّم الموكب ساعة أو يؤخِّر ساعة حتى لا تضيع الصلاة على هؤلاء الفتيان كلهم؟

هذا هو النقص. فيا ليت الوزارة لم تنسَه، ويا ليتها ساقت هؤلاء الجنود كلهم إلى المساجد ليقيموا فيها الصلاة، فإن أجدادنا ما غلبوا عدوهم إلا بالصلاة والالتجاء إلى الله وهوان الدنيا وأهلها عليهم وابتغائهم إحدى الحسنيين: الظفر لإعلاء كلمة الله أو الشهادة.

أفنحسب أننا نستعيض بالحديد والنار عن الإيمان؟

هيهات والله، هيهات! ما النصر بالسلاح ولا بالذخائر؛ ما النصر إلا من عند الله.

* * *

من ذكريات بغداد

نشرت سنة ١٩٤٦

ما الذي هاج في نفسي هذه العشية ذكرَ بغداد، ونشر أمام عيني ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها؟

ما الذي رجعني إلى تلك الليالي (لياليّ في بغداد سنة ١٩٣٦) حتى كأني -لفرط ما تشوقت إليها وأوغلت في ادّكارها- أعيش فيها؟

أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي إليك، فلم أنْسَك إذ أنا في بلدي الحبيب، ولم أزل أحنّ إليك وأشتاقك؟

بغداد... يا بغداد، عليك مني سلام الود والحب والوفاء، على المعظَّم، على الصُلَيْخ، على الكرّادة، على الكَرخ، سلام الفؤاد المَشوق الولهان. على ليالينا «بين الرصافة والجسر»... يا ما كان أحلى تلك الليالي!

لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة وأحنّ إلى الوطن، فصرت في وطني أحن إلى تلك الغربة ولياليها. وما ظلمني موطني وما أنكرني، وما كنت لأذمّه صادقاً فكيف أذمّه بما ليس فيه، ولكنما هي الدّعة، مللتها واجْتَويْتها: إني أشكو ألم الراحة،

فأعطوني به راحة الألم. ذلك الألم العبقري الذي يفتح القلوب بآيات الشعر؛ فإني منذ فقدته لم أعد أحسّ بأنني ذو قلب!

على الرستمية... ألا تزال الرستمية جنة من جنان الأرض حافلة بالعاشقين وبالحور العين، أم طاف بها طائف من هذه الحرب فجفّت خمائلها وهجرها قاصدوها؟ على الصالحية... بروحي صالحية دمشق وصالحية بغداد وصالحية مصر. على «قهوة المطار»، على جآذرها ألف سلام.

على الجسر... يا جسرَ بغداد، كم جمعت وفرقت، ماذا رأيت وسمعت، كم وصلت بين قلوب وقطعت، أنت الصلة بين ماضٍ لنا كان أعزّ من النجم وأسمى وآتٍ لنا سيكون (إن شاء الله) أسمى من النجم وأعز. يا جسر بغداد، يا مَرْبع الحب والأدب والمجد، يا من كنت سرّة الأرض وكنت لي مسرّة القلبِ، عليك مني ألف سلام.

يا ربوعاً تركت فيها قِطَعاً من حياتي وخلّفت فيها بقايا من فؤادي، ماذا صنعت بفؤادي وحياتي يا ربوع؟

ويا دارنا في الأعظمية، مَن حلّ فيك بعدنا يا دار؟

وهل صوّح لبُعدنا زهرُك أم ضحكت من بعدنا الأزهار؟

وهل حُفظت آثارنا أم طُمست من بعدنا الآثار؟

لقد كنت أنت مستقرّي ومثواي، وكان إليكِ مفرّي من دنياي، وكنتِ شاهدة أفراحي كلها وأتراحي، وكنتِ مستودع أسراري وأخباري، كتمتُها عن الناس إلا عنك، فهل كتمَتْ سرّي

هذه الجدران؟ هل سترت ما رأت من نقائصي التي أخفيتها عن الأصدقاء والإخوان؟

ما هذه الدنيا يا ناس؟ هذه الدار التي كنت أفرّ إليها من رحب الحياة وزحمة المجتمع، فأغلق بابها عليّ وأخلو فيها إلى نفسي، فأحسّ أنها جزء مني وأنها لي وحدي، صارت غريبة عني، تنكرني وتجهلني كأني لست منها وليست مني، وصارت لغيري، فإذا ما جئت أطرق بابها رُدِدت عنها أو قُبِلت فيها ضيفاً غريباً لا أرى إلا ما يراه الضيف ولا ألبث إلا ما يلبث... لا يا سكّانها، ما أنا بالضيف الغريب، إنها كانت داري، إن لي فيها حقاً، لي فيها ذكريات، فيها من حياتي، من أنفاسي، من روحي!

ودار العلوم؟ خبّروني -سألتكم بحق الإخاء- عن ظلال أيامي فيها. سقى الله ظلالها صَوْب القلوب!

خبّروني، ألا رجل كريم يُحسن إلى هذا البعيد النائي، فيمرّ بالدار عند مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، فيصعد إلى الغرفة التي تطلّ من هنا على صحن المسجد المنوّر المبارك ومن هناك على صحن المدرسة المزهر المشرق، فيحيي عني هذه الغرفة، فإني سكنتها عاماً كان لي عام دنيا ودين، وفيها جددت طباعي وأفكاري وكونت نفسي.

ثم ليَجُلْ عني في هذه المدرسة، في حدائقها، في صحونها، في ممراتها ودهاليزها. ثم ليصعد سطوحها الواسعة التي تمتد حتى تتصل بقبة المسجد وتشرف على تلك الحديقة العتيقة وتلك المقبرة المهجورة، وعلى طريق الكاظمية، فإن لي على هذا السطح ذكريات...

وإنني إن أنسَ لا أنسَ يوم العيد، وقد خلت المدرسة من ساكنيها فلم يبقَ فيها غيري، فأوغلت في هذه السطوح وصعدت حتى انتهيت إلى أصل القبة، ونظرت فإذا أنا فوق بحر من النخيل، تهتز قممه من تحتي كأنها الأمواج في اللجة الساكنة، وتظهر في فُرَج الغصون طرق الفلاحين وقد خرجوا مع أطفالهم وأولادهم بثياب لها مثل لون الزهر، ثم تختفي خلال الأشجار كشاعر سادر أو محب متعزّل ذهب يناجي ذكريات الوصال.

ودجلة عند منعطف الصُليخ تلوح بعظمتها وجلالها، كأنها سماء من نور ركبت في الأرض. وبغداد، بلد الأساطير والأحلام، يبدو طيفها على حاشية الأفق البعيد بقبابها ومآذنها كأنه (هو أيضاً) أسطورة ساحرة يقصّها الأفق المشرق على الدنيا.

وإلى اليمين قباب الذهب من الكاظمية، والقبة الخضراء التي ثوى تحتها رمس مُلْكٍ شابّ وشابّ مليك، حين ثوى فيها غازي بن فيصل بن الحسين بن عليّ! وما لي بغازي صلة، وإنما هو الوفاء للعراق إذ كان غازي -يوماً- رمزَ العراق.

لقد لبثتُ مكاني حتى شملَت الظلمةُ الكون وضوّأت المصابيحُ في شبابيك المنازل، فنظرت إليها، أنا الغريب المتفرّد الذي يمضي عيده وحيداً على سطح المسجد، لا رفيق له إلا ذكريات سعادة ولّت تؤلمه وتحزّ في قلبه ذكراها، وفكّرت في أمري لو أصابني مرض فلبثت هنا شهراً، فمَنذا يصل إليّ؟ من يسأل عني؟ وأي فؤاد يخفق من أجلي بعد أن سكت ذلك الفؤاد الذي كان خفّاقاً، فؤاد أمي، إلى الأبد؟

نظرت إليها فغبطت أهلها إذ يغلقون أبوابهم على الشمل الجميع، والأهل الحضور، والأنس والسعادة.

ونزلت أمشي في طريق الحديقة العتيقة، وإذا أنا أتعثر بحجر. فنظرت إليه على شعاع ينحدر إليه من مصباح الشارع، فإذا هو قبر متخلّف من المقبرة التي كانت هناك في غابر الأزمان، فامتلأت نفسي بصورة الموت ولم أعد ألمس في هذه الغصون المخضرّة إلا الربيع الماضي الذي مات، ولا أرى من الناس إلا قلوباً ميتة دُفنت في صدور أصحابها، ولا أجد تراب الأرض إلا ناساً كانوا مثلنا وماتوا... فأكلت هذه الأشجارُ أجسامهم وشربت دماءهم، فمنه كان زهرها الذي نشمّ عطره وغصنها الذي نأكل ثمره... ولم أرَ الدنيا إلا موتاً في موت.

وأممت غرفتي وأنا غارق في بحر من الأفكار السود، فسمعت أذان العِشاء يرنّ في صفاء الليل قوياً عذباً يومض ضياؤه في طيات الظلام إذ يحمل اسم الله منيراً مشرقاً، فقمت إلى الصلاة، فلما قُضيت وخرج الناس رأيت المؤذن ينادي -على عادته- بذلك الصوت الممدود: الفاتحة! ثم يغلق المسجد وينصرف، وأبقى وحدي ليس في المسجد ولا في المدرسة غيري، وبينهما باب من داخل، فأعود إلى غرفتي.

وما كاد يكتهل الليل حتى سمعت الصوت في المسجد كرة أخرى، ولكنه خرج هذه المرة ضعيفاً وانياً في نغم حزين من لحن الصبا، فنظرت من شبّاكي، فإذا في أرض المسجد الذي اشتمل عليه الظلام ثلاثة مصابيح نفطية (بترولية) خافتة النور، تكشف

عن نفر من الناس لا يبدو منهم إلا أرجلهم وظلال لهم ممتدة، فكأنهم الجنّ أو كأنه فِلْم مخيف من أفلام ألف ليلة.... ثم سمعت تكبيرات الجنازة، فنزلت فرأيتهم يصلّون على ميت في نعش.

فسألت: من هذا؟

قالوا: مؤذن المسجد!

فانصرفت لأدوّن في دفتري ما عرض لي ذلك اليوم من صور وخواطر، ثم أضعت الدفتر ونسيت الخواطر والصور، ونسيتَ أن في الدنيا موتاً.

كذلك أمضيت يوم العيد في دار العلوم. وإني -على هذا- أشتاقها وأشتهي أن ترجع لي أيامي التي مرت فيها. فيا رحمة الله على أيامي في دار العلوم وعلى مَن بقي من أهلها السلام!

* * *

وإن أنسَ لا أنس «ليلة البلاط»، يا ليت ليلة البلاط تعود!

لقد رجعت أنا وأنور العطار، صديق عمري ورفيق سفري وحضري، العشيّةَ من الأعظمية إلى بغداد، فتركنا السيارات وجفونا الطريق الأعظم واخترنا محجّة على سِيف دجلة فسرنا فيها، وكانت تتكشف لنا تارة فنسلكها وتضلّ (طريقها...) تارات فتتيه بين النخيل. وكان النهر أبداً عن أيماننا، يبدو حيناً بصفحته البيضاء المشرقة التي تشبه وعد الوصال يشرق للمحبّ في ليل الهجران والأمل البسّام يلوح لليائس في غمرة القنوط، ثم يحجبه عنا النخيل ويستره الظلام كما يخلف المحبوبُ بدلاله الوعدَ

وتمحو الحياةُ بواقعها سطورَ الأحلام وتطمس صورَ الأماني.

وكان صديقي يحدثني حديث ماضيه فيثير في نفسي عالماً من الذِّكَر الأليمة، كلما نزلتُ به في أعماق قلبي ودفنته في هوّة النسيان وحسبته مات انبعث فجأة كأنما وُلِدَ الساعة، عالم فيه صور أبي وأمي وآمالي.

واستغرقنا في خواطرنا وغبنا عن حاضرنا، فما نبّهنا إلا جندي بحربته المسدّدة إلى بطوننا وبندقيته الموجهة إلينا، وصاح بنا أن ارفعا أيديكما، ففعلنا. قال: ما أدخلكما الحِمى (بلاط الملك)، وفيمَ أنذركما فلا تقفان؟ لقد هممت أن أرميكما بالنار!

وكانت تلك هي الأوامر، ما بعد الإنذار إلا النار.

فقلنا: نحن أديبان. أرأيت أديباً نفع معه إنذار أو أفاد معه تخويف؟ ثم إننا بَرِمنا بالحياة، لا نرى فيها إلا ماضياً لا سبيل لإرجاعه وأملاً لا وصول إليه، ولو أنت رميتنا لمننت علينا بميتة سهلة نرجو من بعدها ثواب الشهداء، وإن الموت -يا عسكري- درجات وألوان بعضها أطيب من بعض، وما نظنك سمعت بدعاء الأعرابي الذي سأل الله ميتة كميتة أبي خارجة لأن هذه الجفوة منك دلّتنا على أنك لا تقرأ كتب الأدب. أفتحب أن تعرف كيف مات أبو خارجة حتى أصبح موته أمنيّة؟ أكل حنيذاً، وشرب نبيذاً، ونام في الشمس، فمات شبعان دفآن ريان!

قال الجندي (ولم يفهم منا شيئاً): شِنو إنتو يا بَهْ؟

قلنا: نحن معلمون.

فضحك وأرخى سِنان بندقيته وقال: معلّمون صحيح، أما غير مخبّلين (وغير هنا للتأكيد، ومخبَّلين أي مجانين)! وتركنا نمضي لأن المجنون لا يُسأَل.

تلك هي ليلة البلاط، وإني لا أذكرها إلا أسفت على هذه الميتة الحلوة التي فاتتني وخشيت ألاّ أتمكن من مثلها، وأظن صديقي آسفاً مثلي، إلا إذا استطاب حياته بعد الزواج وتعليم البنات الأدب[1]. أما حياتي أنا فليس فيها لذة تستطاب وليس فيها ألم يُستكرَه؛ أعني أنني لست إنساناً يحيا ولكن «شيئاً» يعيش!

تلك هي ليلة البلاط[2].

* * *

ما لي كلّ الليلة ذهني ولم يسعفني شيطاني؟ ما لي أكتب عن بغداد فلا أذكر من أيامها إلا هذا الحديث التافه، وأيام بغداد مواسم للمجد وأعياد، ولياليها فرحة الفؤاد وأسرّة للحب ومهاد، وماضيها مآثر ومفاخر وأمجاد؟

ما لي لا أتحدث عن دجلة، ويا طول شوقي إليها! وإلى زوارق المحبين وهي تمضي فيها حالمة سكرى، والأغاني تتراقص

---

(١) كتبت هذا وأنور حي، وقد مضى أنور فعليه رحمة الله.

(٢) هذا البلاط الذي كانت تحميه حِرابُ الحرّاس من قريب ومدافعُ الإنكليز من بعيد، تمنع الناس أن تدنو منه فترى ما وراء جدرانه وتبصر مَن فيه على حقيقته: أسداً على الناس ونعامة بين يدي المستعمِر. مَن كان يظن أن هذا البلاط ستقوّضه أيدي الشعب على جثث مَن كانوا فيه، وكانوا هم المالكين؟ ألا لا يغترّ بالدنيا أحد!

على أمواجها ضاحكة مرحى، والسمك المسقوف... خبروني، ألا تزال مرفوعةً سقوفُه، مشتعلةً نارُه، أم هوت من هول الحرب الدعائمُ[1] وانطفأت النار؟

ما لي لا أناجي إخواني وتلاميذي الذين عشت دهراً من عمري بهم ولهم، وأسألهم أيذكرون هذا المعلم؟ أم قد مرّ في حياتهم مرور شخص السينما، ثم تنقضي الرواية ويُسدَل الستار، فكأنما لا شخصٌ مرّ بهم ولا «فِلْم» عُرض عليهم؟

أما أنا فاشهدوا -يا تلاميذي ويا إخواني- أني ما نسيتكم. أأنسى نجدة وعلياً[2] ونزارَ ابن البطل الشهيد، إلا إذا نسي الأب أولاده؟ أأنسى «بهجة» العراق[3]، وقد طالما قبست الجزل من فضله ورأيت الفذّ من نبله؟ ما نسيت، ولئن كبا بي القلم الليلة فسأعود إلى الحديث عن بغداد، وما كل مرة يكبو الجواد.

وعلى إخواني وتلاميذي وبغداد وأهلها سلام الله ورحمته وبركاته.

* * *

---

(١) الحرب العالمية الثانية، وقد نُشر هذا المقال في السنة التالية لنهاية الحرب (مجاهد).

(٢) هو علي الراوي رحمة الله عليه، ونجدة فتحي صفوة هو الأديب الكاتب الذي تقرؤون له في «الشرق الأوسط».

(٣) الشيخ بهجة الأثري، وقد سبقت الإشارة إليه في مقدمة الكتاب (مجاهد).

يوم من أيام بغداد

نشرت سنة ١٩٤٧

طلعت جريدة «البلاد» على أهل بغداد صباح اليوم الأخير من آذار عام ١٩٣٩، وفي صدرها مقالة (لكاتب شامي يحمل اسماً كاسمي) ليست كالمقالات: جُمَلاً تُرصَف وكلمات تُؤلَّف؛ ولكنها قلب يتفطر وديناميت يتفجر، عنوانها: «يا غازي، يا غازي، يا غازي»، وفيها:

يا غازي، تدعوك الأيامى الثاكلات. يا غازي، يناديك اليتامى المظلومون. يا غازي، يستنصرك الضعاف العُزّل، والعجائز الرُّكّع، والأطفال الرُّضّع. يا غازي، يهتف باسمك الشباب الذي يواجه بجسمه المصفحات، وبصدره الدبابات، ويحارب الدولة الطاغية الغاشمة، لا سلاح له إلا إيمانه وأمله بالله، ثم بالعرب وبك يا مليك العرب، يا غازي!

يا غازي، دعوةَ غريق ينادي منقذه القوي!

يا غازي، هتافَ مريض يدعو طبيبه الآسي!

يا غازي، إهابةَ مشرف على اليأس بالسيد المأمول!

يا غازي، صرخةَ الدم، واللغة، والدين، والمجد، والجوار.

يا غازي، لقد نادت امرأة واحدة في سالف الدهر: «وامعتصماه» فاهتزّ لها هذا العرش، عرشك، وماج لها هذا الشعب، شعبك، وخرجت الجيوش، جيوش بغداد، فلم ترجع إلا وفي رِكابها المجد والنصر.

فمَن غيرك وغير العراق لهذه الأمة التي حملت البلاء، ورأت الشدائد، وشاهدت ألوان الموت، وخانها الحليف، ونقض عهدَه لها القويُّ، وجرَّد دباباته الضخمة ومدافعه وعتاده ليحارب بها النساء والأطفال والشيوخ؟

مَن غيرك وغير العراق لهذه الأمة التي تنادي اليوم: «واعراقاه»، «واغازياه»!

فقم يا أيها «المعتصم»، لبِّها على «الخيول البلق»، فإن كُتّاب التاريخ أعدُّوا صحفهم وأمسكوا بأقلامهم ليكتبوا المفخرة مرة ثانية للعراق، ولملك العراق. إن الأمة التي أحبّت فيصلاً وأحبها فيصل تناديك اليومَ، يومَ الخطب، يا ابن فيصل.

إن الشعب الذي بايع فيصلاً هو على بيعته لك، فهل تضيع شعبك يا أبا فيصل؟

إن القصر الذي كان يسكنه أبوك ملكاً، والذي كنت تلهو في حدائقه طفلاً، هو اليوم مقر عدو العرب؛ منه يصدر الأمر بتقتيل رجال العرب ونساء العرب، يسكنه اليوم العدو الذي بغى على فيصل وسرق منه عرشه، فأنقِذ تراث فيصل من عدوّ فيصل، وعُدْ أنت إلى قصر فيصل يا ابن فيصل!

يا غازي، الشباب الذين سقطوا في شوارع دمشق شهداءَ

البغي، ماتوا وهم يهتفون باسمك: يا غازي. العجائز تلقين أبناءهن المصرعين على أرض الوطن وهنّ يهتفن باسمك: يا غازي!

يا غازي، كم من طفل وطفلة عدا عليهم الظالمون، فتلفّتوا حولهم يفتّشون عن المنقِذ الذي حفظوا اسمه، ورفعوا رؤوساً يسيل من جراحها الدم وأشاروا إلى الشرق بأصابعهم الصغيرة المخضبة بالنجيع الأحمر، ونادوا اسمك: يا غازي!

يا غازي، بك علقوا الآمال ومنك ينتظرون العون، أفتدع هذا الشعبَ بين براثن الوحوش يعبثون بكرامته وأمجاده وحياته، وكرامتُه كرامةُ العرب، وأمجادُه أمجادُهم، وحياتُه حياتُهم؟ أتتركهم يموتون، وبغداد تستروح رائحة الربيع العطر وتستمع إلى جرس النشيد الحلو وتنام على فراش النعيم؟

يا مليكي، هذا يوم من أيام التاريخ له ما بعده، فلا يقولنّ التاريخ: يا ليتهم نصروا الشام في وقت محنته! يا ليتهم لم يدعوه رهن الحديد والنار!

الشام في كرب شديد... الشام في ضيق. لقد ضجّ لِمَا يعاني الشامُ قبرُ محمد، يا سليل محمد! لقد اهتزّ الحطيم وزمزم، ومادت جبال مكة، يا حفيد شريف مكة!

يا مليك العرب: الشام يدعوك، الشام يستجير بك؛ الشام يهتف باسمك: يا غازي، يا غازي، يا غازي![1]



---

(١) خبر هذه المقالة وجزء كبير منها منشور في الحلقة ١٠٧ من ذكريات=

نُشرت المقالة في أشهر جرائد بغداد فألهبت شبابها. وشباب بغداد كُوِّنت أعصابهم من نور ومن نار، وخُلقت أيديهم من الندى ومن الحديد، ومُلِئت قلوبهم نخوة وسماحة وأُترِعت شجاعة وكرماً:

فإذا حاربوا أذلّوا عزيزاً   وإذا سالموا أعزّوا ذليلاً
وإذا عِزُّ معشرٍ زالَ يوماً   منَعَ السيفُ عزَّهم أن يزولا

وشباب بغداد جند العروبة حيثما كان للعروبة أرض، وحُماة الحِمى وأُسد الغاب؛ إن أُطلقت رصاصة في الشام أو في مصر أحسّوا أزيزها، وإن أُشعلت فيها نار وجدوا حرّها، وإن سقط شهيد كان عندهم مأتمه، وإن أصيب جريح كان في ضلوعهم ألمه.

وشباب بغداد -إن غضبوا- الإعصارُ الجارف، والبحر الطاغي، والصواعق المنقضّة، والموت... هل من الموت مهرب؟ وشباب بغداد -إن رضوا- النسيم الرخيُّ، والربيع الطلق، والسلسبيل العذب، والحياة... هل في الوجود أحلى من الحياة؟

وعلم شباب بغداد أن ديار الشام في خطر، وأن «حلفاءها»

= علي الطنطاوي (في الجزء الرابع) وعنوانها: «بغداد تغضب لأختها دمشق»، وفيها: "إن القصر الذي كان يسكنه أبوك ملكاً والذي كنت تلهو في حدائقه طفلاً، والذي كان في حيّنا وكان مجاوراً لبيت عمي وكنت أراك فيه طفلاً، صار اليوم مقر عدو العرب، منه يصدر الأمر بتقتيل رجالهم ونسائهم وأطفالهم، يسكنه اليوم من بغى على فيصل وسرق منه عرشه، فأنقذ -يا ابن فيصل- البلد الذي أوى إليه فيصل"، إلى آخر المقالة (مجاهد).

قد نقضوا عهدهم لها وعادوا -كما كانوا- أعداءها، فأسروا كِرامها وسوّدوا لِئامها[1]، وجرّعوها من (مدنيتهم...) الصاب والحنظل المسموم، وأن شباب الشام قد لبس لأمَةَ الجهاد ونزل إلى الشوارع، يجالد البارود بالحجارة ويردّ الدبابات بالخناجر، حتى سقطت الدور على أهلها فغدت مقابر، وامتلأت بالأبرياء السجونُ، واشتدّ الخطب وعَظُمَ البلاء، وقلّ النصر وانقطع المدد...

* * *

واشتعلت الحماسة في صدور شباب بغداد ناراً، ومشت هذه النار في قلوب الشعب فلم تمضِ ساعات حتى صار حديثُ الشام حديثَ الناس في كل مكان، في القهوات والطرق والمنازل والمدارس، ولم يعد الطلاب يصغون إلى درس أو يستمعون إلى مدرّس... أيشتغلون بالمفاضلة بين الفرزدق وجرير وبحساب بُعد القمر ومساحة سيبريا، والشامُ غارقة في دماء بنيها، عابقة برائحة البارود، رازحة تحت أثقال المدافع، تطؤها نعال الفرنسيين والسنغال؟

أيطلب الشكلاطةَ من لا يجد الرغيف؟ أيقرأ الأشعار من تأكل بيتَه من حوله النارُ؟ إنهم يريدون أن يطيروا إلى الشام ليطبقوا في ساحاتها ما تعلموه في دروس الفتوّة من فنون القتال.

وفوجئ الناس في المساء بإذاعة هذه المقالة من محطة الملك الخاصة في قصر الزهور[2]. فلما انتهى المذيع من تلاوتها

---

(١) أي جعلوهم سادة.

(٢) في ذكريات علي الطنطاوي: وكان لغازي رحمه الله ولع بالأعمال=

كانت مفاجأة للناس أشد وأمجد، حين سمعوا صوت الملك غازي الذي يعرفونه يقول: "لبيك، لبيك يا سورية"!

فكانت هذه الكلمة سحراً ماضياً جعل كل منزل في بغداد ثكنة، وكل قهوة معسكراً، وكل رجل جندياً شاكي السلاح ينتظر الأمر بالهجوم على الجن والإنس والعفاريت، لا يهاب شيئاً ولا يخشى أحداً، ما دامت الحرب حرباً مقدسة لنصرة الشام والقائد الملك الشاب الحبيب.

وكانت حال لا توصف ولا تصوَّر، ولا تمحو الأيام أثرها.

* * *

ودعا ناظر الثانوية المركزية في صبيحة الغد نفراً من المدرّسين العراقيين والشاميين منهم كاتب المقال، وأفهمهم سراً (ولا ضير اليوم من إذاعة هذا السر) أن الحكومة ترغب في مظاهرة احتجاجية على فرنسا، وأنه ترك لنا أمر تنظيمها؛ فكان ذلك أحبَّ إلينا من خزائن المال نُعطاها وأسمى المراتب نُمنحها، وخرجنا فأخذنا في عملنا.

= الكهربية (الإلكترونية واللاسلكية)، حتى إنه أنشأ في قصر الزهور في الكرخ إذاعة أقوى من الإذاعة الرسمية (الذكريات: ٤/١٠١). وذكرت كتب التاريخ أن الملك غازي كان شديد الاهتمام بالقضايا الوطنية والعربية وأنه خصّصَ إذاعة من قصره تذيع البيانات الوطنية ضد الاستعمار الإنكليزي والاستعمار الفرنسي، ولذلك سعى الإنكليز إلى التخلص منه فقُتل في حادث غامض حين اصطدمت سيارته بعمود كهربائي مساء ٣ نيسان من عام ١٩٣٩ (مجاهد).

وكان في بغداد وضواحيها عشر ثانويات، فاقتسمنا ثانوياتها العشر، ينفرد كل منا بإعداد طلاب مدرسته للمظاهرة، وتفنّنا في هذا الإعداد واستبسلنا فيه. وكنت امرأً أكتب ولكني لا أحسن بيتاً واحداً في الشعر، فبحثت عمّن ينظم لمدرستنا نشيداً لهذا اليوم فلم أجد، فنظمت أنا أنشودة مهلهلة النسج ضعيفة التأليف، لكنها خارجة من القلب وتقع في القلوب، ثم وضعت لها (أنا...) لحناً لفّقتُه من ألحان الأناشيد التي كنت حفظتها قديماً ونسيها الناس، وعمدت إلى لوحات صنعناها من القماش فكتبت عليها كلمات تعبّر عن الحقيقة التي امتلأت بها نفوس البغداديين مثل:

«الله جعلنا أمة واحدة فلن تفرقنا يد مخلوق»، «نحن جند الوحدة، إننا سنكتبها بالدم»، «من تعدّى على دمشق فقد اعتدى على بغداد»، «لبيك لبيك يا سورية، إننا آتون»، «يا سورية، لن تضامي وشباب العراق في الوجود»...

وسهرت مع الطلاب في كتابتها وتلوينها، وأنا الذي لم يمسكْ من قبل ريشة قط.

* * *

ولم أنم تلك الليلة، بل كنت أنتقل من مكان إلى مكان. حتى إذا أصبحنا بكرت إلى ساحة الاجتماع، وهي الساحة الفيحاء بين دار الكتب والمتوسطة الغربية ودار المعلمين العليا، فوجدتها تعجّ بالطلاب من كل مدرسة، وكلهم بلباس الفتوّة لا يمتاز طالب من طالب، فكيف أجمع طلاب مدرستي وأصفّهم؟

وطفقت أصرخ ولا سامع ولا مجيب. ومَن يسمع النداء في

هذا المحشر الذي جُمع فيه عشرة آلاف طالب متحمّس كلهم يصيح ويتكلم؟

ثم ألهمني الله فكرة، فدعوت عريفاً من عرفاء الطلبة ميّزته من شرائط الفضة على ذراعه، فانتصب أمامي وحيّا ووقف وقفة عسكرية ينتظر مني الأمر. فقلت له: صفّ هؤلاء الطلاب.

فأعاد التحية وقال: حاضر.

وانصرف، وأنا أعجب منه كيف يقول: «حاضر»، وقد عجزتُ من قبله عن ذلك ويعجز عشرة من أمثالي! وإذا به يدعو طالباً معه بوق، فينفخ به، فتقع المعجزة ويعمّ الصمت، كأن المتوكل قد طلع بضوء وجهه...

... ... فانجلت تلك الدجى وانجاب ذاك العثير

ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هذه الخلائق كلها تغدو صفاً طويلاً صامتاً مرتباً.

وقدمني إخواننا فخطبت فيهم خطبة. ومشينا، حتى إذا بلغنا أوائل ميدان باب المعظم قابلتنا مواكب الشعب الهائلة آتية من حيّ الفضل وتلك الأرجاء، فتدانى الجبلان، والتقى البحران فعادا بحراً واحداً تلتطم أمواجه وتعلو أثباجه، بحراً من الناس ملأ باب المعظّم وأفواهَ الشوارع المفضية إليه والأرضَ البراح من هنا ومن هناك.

وقام الخطباء في كل مكان فلم يبقَ في اللغة كلمة تمجيد إلاّ قيلت للشام، ولا لفظة تحقير إلا سيقت لفرنسا، ولا جملة تعبر

عن القوة والإيمان والاستعداد إلا ألقيت على الناس، ولا شيء يهز القلب ويحرك العزائم إلا كان... ثم مشى هذا البحر.

وإلى أين تمشي البحار؟ والشوارع قد سُدّت بالناس، والناس على الأرصفة وفي الشرفات وعلى الأسطحة، وفي كل مكان هتاف ونداء؛ فالطلاب ينشدون، والعامة يحدون، والنساء يزغردن، والتكبير والتهليل، والمواكب تمتد، والخلائق تتوافد، حتى حلت بغداد كلها في شارع الرشيد، من باب المعظم إلى الباب الشرقي، وكان يوم ما رأيت له مثيلاً قط.

* * *

إننا لم نَخُض في ذلك اليوم ملحمة ولا شهدنا معمعة، ولا أرقنا لعدوّ دماً ولم نجاوز فيه الكلام، ولكنه كلام جعل كل فتى من هؤلاء الفتيان بطلاً، وترك في نفسه ذخيرة تمدّه بالقوة دهراً، وصبّ في نفسه من العزة ما جعل نفسه أسمى من النجم وأكبر من الدنيا.

كلام ولكنه كان أساساً من الصخر الراسي في صرح العربية غداً والإسلامية بعد غد. كلام ولكنه أرهب العدو وخلع قلبه، وردّه عن قصده، ودفع من عدوانه. كلام ولكن بمثله تحيا الأمم، وتُبنى النهضات، وتُكتَب تواريخ المجد.

كلام، وإن من الكلام لفَعالاً من أعظم الفَعال، وقوة من أمضى القوى، ومجداً من أسمى الأمجاد.

* * *

إن الشام يذكر لك -يا بغداد- في عرس الاستقلال ما أسديتِ إليه في بؤس الاحتلال، فهلاّ اتخذت عند مصر يداً مثلها تذكرها لك يد الدهر؟

إن مصر -يا بغداد- أختنا الكبرى في العروبة، وقضية مصر قضيتنا، ووادي مصر وادينا، وعدو مصر عدونا، وإننا إن نخذلْ مصر نخذلْ بلادنا، وإلاّ نكنْ معها نَخُنْ أمتنا.

يا بغداد، يا ذات المجد، يا مثوى البطولة، يا عرين الآساد؛ إن مصر قد عدا عليها العادون، وكشّر لها عن أنياب الذئب من كان يجيئها أيام الحرب في فروة الحمل سائلاً يطلب منها العون والمال.

إنه يريد الآن أن يفرق بين أسودها وأسمرها، وأعلاها وأدناها، ويسرق منها نصف واديها، أفتنامين -يا بغداد- في سُرُر الأمان ومصر في الشوارع تصارع الذئاب؟

يا بغداد، اليوم يومك، يا بغداد!

* * *

تحية وشكر

زار وفد النادي العربي بغداد سنة ١٩٣٨ فكان الاحتفاء به عظيماً وكان إكرامه سابغاً، فنشرت هذه الكلمة في جريدة «البلاد» تحية لأهل بغداد وشكراً.

يا أهل العراق:

ارحموا قلوب إخوانكم من أهل الشام، فإنها مملوءة بحب العراق وشعبه الحبيب، وأرضه وسمائه، وماضيه وحاضره، وكل ما يحتويه العراق، فارحموها؛ لا تحمّلوها فوق ما تطيق، لا تكلّفوها من حبكم شططاً، لا تحملوا عليها كرمكم كله فإنها قلوب، لا تطيق القلوب حمل البحر الخِضَمّ.

إنها قلوب، هل تملك القلوب إلا الحب؟ والألسنة؟ هل تطيق الألسنة إلا الشكر؟ هذا جهد المُقِلّ؛ فلكم من إخوتكم، من أشقّائكم الساكنين داركم الأخرى الصغيرة، القائمة على سفح قاسيون وضفاف بردى، الحب كله والشكر كله، خالصاً لكم.

ولكنكم -يا أهل العراق- ما رحمتم هذه القلوب، ما اقتصدتم في الكرم.

ما رحمتموها! هؤلاء فتيان دمشق قد عادوا وعلى ألسنتهم

سورة جديدة من سور الحمد، وقصيدة من قصائد الثناء. فمتى تتلوها؟ هل تركتم لنا (نحن الشاميين) وقتاً؟ ألم نملأ الوقت بالثناء عليكم؟

قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى نيّرة سيشيع نورها في دمشق فيجلو لأهلها كرمكم وعظمتكم. قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى عطرة سيفيض أريجها على الغوطة، فتضوع من أزهارها عطور بغداد. ومتى خلت أزهار الغوطة من عطور بغداد؟

* * *

يا أهل العراق:

إن كل حفلة أقمتموها لهذا النادي إنما هي تكرمة لدمشق وسطر جديد من كتاب الأخوّة التي ألّفت سِفرَها العصورُ، ونظمت أبوابَها يدُ الحق الأبلج والواقع القاهر، وكانت مادتها العقيدة واللغة والنسب والجوار، أما العنوان فقد أملاه الله من فوق سبع سماوات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

أفيتناقش الناس -بعد ذلك- في الوحدة: أتكون أو لا تكون؟

يا دكتور طه حسين، إنك لن تحل عقدة عقدها الله، إنك لن تستخرج من نفوس المصريين إيمانهم ولن تنزع من ألسنتهم عربيتهم بحديث صحفي تدلي به وأنت في «ماريبت باشا» مسافراً إلى فرنسا[1].

---

(١) وهو حديث عندي نصه منشور، فيه إنكار للعروبة وحرب للوحدة. وقلم طه حسين كالحرباء، كل يوم له لون، وما لونه إلا لون ما حوله.=

ويا... يا (أولئك) الناس! إن خشبتين منصوبتين في عرض البادية لن تمنعا البحرين إذ يلتقيان، لن تمحُوَا وحدة العقيدة واللغة والنسَب والجوار والذكريات والآمال؛ فلا تختصموا ولا تنازعوا...

قد وضح الصبح لذي عينين!

* * *

ومَنذا الذي يقول إن أعضاء النادي العربي كانوا غرباء في بغداد؟ ومَنذا الذي يقول إن وفد الفتوة العراقية كان غريباً هذا الصيف في الشام؟

اعقلوا يا ناس! فإن الألماني يدخل فرنسا وإن الفرنسي يلج ألمانيا، فلا يمشي فيها ساعة[1] حتى يرى كل شيء قد تبدل، فلا اللغة باللغة، ولا العادات بالعادات، ولا الوجوه بالوجوه، أما العربي...

أما أنا في بغداد... ماذا تغير عليّ؟ أليس ماضي بغداد ماضيّ وحاضرها حاضري؟ أليس الرشيد خليفتي والوَحدة والعزّة أملي؟ وبواتيه؟ ألا تُبكيني كما تُبكي البغدادي[2]؟ وفلسطين؟ ألا تشغلني كما تشغله؟ ألا أفخر بأمجاد بني العباس كما يفخر بأمجادهم؟

= ولقد كتب في الكفر وليس كافراً، وكتب الآن في الإسلام وليس متديناً، وطرق كل موضوع وما يعتقد موضوعاً مما طرق.

(١) بل نصف ساعة فقط من آخن (في ألمانيا) إلى لييج (في بلجيكا) مثلاً.

(٢) في عام ١١٤هـ (٧٣٢م) هُزِم الجيش الإسلامي في معركة بلاط الشهداء واستُشهد قائده عبد الرحمن الغافقي، على بعد نحو مئتَي كيلومتر جنوب باريس بين بلدتَي تور وبواتيه (مجاهد).

أليست اللغة لغتي؟ والمسجد مسجدي؟ والعادات عاداتي؟ والوجوه وجوه أهلي؟

فماذا بعد هذا يا ناس؟

* * *

فتحية طيبة، وشكراً شكراً -يا أهل العراق- على ما أكرمتم به وفدنا، على ما أكرمتم به إخوانكم من سكان الجانب الآخر من المنزل. ولكن لا؛ لا شكر، جلّ الأمر عن الشكر. لا شكر؛ إن الأخ لا يشكره أخاه!

يا أهل العراق، لا أقول هذا تزلفاً ولا أريد عليه مكافأة، ولا أقوله باسم النادي فلست منه ولا أنتسب إليه، وما كنت شريكه في الذي ناله من إكرام ولا دعاني أحدٌ إلى حفلة واحدة من هاتيك الحفلات كلها، ولكن أقوله لأنه الحق ولأني أحب العراق، مشرق أملنا اليوم ومصدر النور لنا ومعقد رجائنا، فمَن شاء فليصدق ومن شاء فليطر مع الظنون السود ثم ليهبط حيث أراد.

إني أحببت العراق قبل أن أعمل فيه موظفاً وسأحبه بعد أن أدع العمل[1]، كما يحبه اليوم كل عربي وكل مسلم، وإني أرفض أن آخذ على حبي أجراً من أحد، فصدّقوا إذا شئتم!

يا أهل العراق، تحية طيبة وشكراً شكراً، وحقّقَ الله الرجاء.

* * *

(١) وهأنذا بعد كتابة هذا الفصل بخمسين سنة كاملة (من ١٩٣٨ إلى ١٩٨٨) لا أزال على هذا الحب، فلا يقُل أحدٌ في العراق إننا قد قصّرنا في الوفاء!

صورة سوداء من بغداد

نشرت في بغداد سنة ١٩٣٧

كنت نازلاً اليوم من الأعظمية إلى بغداد في سيارة من هذه السيارات التي يدعونها «الباص»، وكان إلى جانبي رجل مسلم على رأسه عمامة بلدية[١] ويبدو عليه أنه تعدى الأربعين وبلغ سن العقل والرشد، فسرني جواره وهممت بأن أفتح معه باباً للحديث، فلم أكد أفعل حتى رأيته يُخرج علبة دخائنه (سيكاراته) ويشعل دخينته وينطلق الوقح قليل الحياء يدخّن علناً، لا يستحي من الله أن يراه -على شيبته- مفطراً في رمضان ولا يخجل من الناس أن يروه عاصياً فاجراً.

فحوّلت وجهي فإذا أنا بآخر يدخن في الطريق، وإذا هنالك ثالث في القهوة، ورابع وخامس وسادس... وما شئتَ من آكلين وشاربين ومدخّنين، فذهبت إلى المدرسة فإذا غرفة المدرسين كأنها قاعة تدخين، وكدت أقول كأنها «محششة»، وإذا إخواننا المدرّسون المسلمون يدخّنون، لا دين ولا مجاملة ولا قوة إرادة... ولا شيء في الدنيا اسمه الحياء.

وإذا المجاهرة بالعصيان سنّة متبعة و«موضة» شائعة، وإذا

---

(١) بشماغ.

أكثر الشبان، أعني مَن عرفت منهم، لم يدرسوا الإسلام وما لهم به صلة وثيقة، بل إنهم ليقربون من الإلحاد ويحبذونه ويتمنون لو سار العراق على هذه الطريقة العوجاء التي سار عليه جيرانه الأتراك والتي تؤدي به إلى الهاوية... لِمَا وضع في نفوسهم المدرّسون الذين تخرج أكثرهم في الجامعة الأمريكية من بغض الدين والزهد فيه، وما يشبه ذلك من المبادئ الخبيثة التي أُنشئت لأجلها هذه الكلية وسائر المدارس الأجنبية بلا استثناء[١].

هناك داء دويّ فتاك، إذا لم تنتبه له البقية الباقية من علماء المسلمين الذين يعرفون الإسلام ويغارون عليه ويعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الدين وأصل من أصوله، وأن المسلمين آثمون إذا هم تخلوا عنه جميعاً ولم تكن منهم أمّة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر... أقول: إذا لم ينتبه هؤلاء إلى هذه الحالة ويعالجوها بالحكمة وبالموعظة الحسنة، وبالردع وبالحزم، أوشك أن يمضي الوقت ويمشي هؤلاء المسلمون الباقون في طريقهم، ولا يبقى في العراق عالِم، فينصب الناس علماء جهّالاً فيفتون بغير علم، فيَضِلّون ويُضلّون.

وأحسب الوقت كاد يمضي، وأظن أن الظفر قد تم في العراق لهذه الفئة الملحدة الرعناء[٢]. وإلا فما بالنا نقرأ في صدر

---

(١) يجب على كل شاب مسلم أن يقرأ كتاب «التبشير والاستعمار».

(٢) نشأ في العراق اليوم من ناشئة الشباب قوم أعزّ الله بهم دينه ونصر شريعته وأعلى كلمته، وهذه علامة من العلامات على أن الله يحفظ هذا الدين وأن العاقبة للمتقين.

جريدة من أكبر جرائد العراق مقالات حشوُها الطيش والسخف والكذب والمراء، مقالات كتبها صاحبها لا برأسه ويده، بل فكّر فيها بأنفه وكتبها بخنصر رجله، يدعو فيها إلى الحياة التي يريدها... وما هذه الحياة علماً ولا مجداً ولا صناعة، فما يبالي بشيء من هذا ولا يفهمه ولا يصل إليه إدراكه، ولكن هذه الحياة إنشاء المراقص والخمارات، وفتح المواخير في المنازل و(الأوتيلات)، ولبس القبعات، وما إلى هذا مما يعرفه أهل هذا الفن الداعر المومس الخبيث!

وإلا فما لهؤلاء المفطرين لا يجدون من يقول لهم كلمة أو يمنعهم، وما لهم (خيّب الله آمالهم وأدنى آجالهم) جامحون في طريقهم، فِعلَ الدابة الحَرون لا رادع ولا مانع؟

وهل من العلم والحضارة أن يتجرّد المرء من دينه ويركب سبيل الشهوات ويتخطى حدود الشرف والأخلاق؟ إذا كانت هذه هي الحضارة وكان هذا هو العلم، فلعنة الله عليهما وعلى من يدعو إليهما!

إننا قوم لهم دين، ولهم كتاب اتّبعه أجدادهم فنجحوا وأفلحوا وملكوا زمام الكون، ولا سبيل لنا إلى الفلاح إلا باتّباع الدين. وهؤلاء الذين يقولون باللاييك وينكرون جامعة الدين يتكلمون بما لا يفهمون ويهرفون بما لا يعرفون؛ لأنهم لم يدرسوا الدين ولم يطّلعوا على أسسه وأحكامه ولم يدروا ما هو، وإنما يتكلمون على الظن، كمن يشهد بالله أن فلاناً لص سارق أو كاذب محتال، وهو لم يعرف هذا (الفلان) ولم يلقَه ولم يربطه به سبب من الأسباب! أو يتكلم عن مدينة من المدن ويصف

شوارعها وسوقها، وهو لم يرّها ولم يقرأ عنها ولم ينظر مصوّرها ولا سمع خبرها! فلا يغترّنَّ أحدٌ بما يقول هؤلاء؛ فما لكلامهم قيمة إلا إذا درسوا وبحثوا وتكلموا عن فهم... وإلا فهم أهون من أن يُصغى إليهم.

وانظروا بالله يا أيها المنصفون... هذا الصيام، أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ، وكتب العلماء في أحكامه ومزاياه وفوائده مئات، بل ألوفاً من الصحف، نُشرت في الشرق والغرب في القديم والحديث، فيأتي شاب أحمق غِرّ جاهل، فلا ينظر فيما قالوا ولا ما كتبوا، ثم يأخذ لنفسه الحق في أن ينكر فائدة الصيام ويردّ على الله ورسوله والأئمة والعالمين من غير بحث ولا فهم ولا هدى ولا صراط مستقيم!

فأي فائدة وأي قيمة لهذا المقال؟

ومثل الصيام الصلاة وسائر أحكام الدين. فإما أن يبين لنا هؤلاء المجددون (أو «المجرّدون» على حد تعبير الكاتب الكبير محب الدين الخطيب) بالبحث الصحيح والحجة الدامغة أن أوامر الدين (من صلاة وصيام وحج) ونواهيه (من ردع عن الكذب والخيانة والزنا واللواطة)، إما أن يبينوا أنها شر وضرر، وأن ترك الصلاة والصيام والحج خير وأن الكذب والزنا والسرقة هي الخير والفائدة، وإما أن يعترفوا بأنها خير ونفع ولكنهم قوم كسالى أو مقصّرون أو أنهم يحبون الشر... وإما أن يتبعوا سبيل الدين ويكونوا مسلمين صادقين، لا مسلمين جغرافيين.

إن هؤلاء المجددين ليسوا إلا مقلدين بلا بصيرة ولا اطلاع،

مقلدين للإفرنج، وإني أناقش كثيرين منهم فألعب بهم وأسخر منهم؛ أعمد إلى اللفظة أو الحكمة من حكم علمائنا فأقولها لهم وأنسبها إلى صاحبها العالم المسلم فيهزؤون ويضحكون، كأني قلت لهم نكتة من نكات جحا، فآخذ اللفظة مثلها في معناها أو التي أقل منها لعظيم من عظماء الغرب، فيطأطئون الرؤوس ويسمعون ويعجبون.

لا يفرقون بين حق وباطل ولا يعرفون الحسن من السيء، ولكن يعرفون أن هذا غربي فهو حسن، ولو كان الرقص والزنا والشيوعية والإباحية والانتحار والموت الأحمر والبلاء الأزرق والعيش الأسود... وأن هذا شرقي، أو على الأصح إسلامي، فهو قبيح ولو كان الصلاة والصوم والصدق والمروءة والمجد والعلم والحياة!

وأنا لا أتمنى شيئاً ما أتمنى أن أجد ملحداً واحداً أو مجدداً يستطيع أن يناقش بالحجة والبرهان، ويعرف شيئاً غير الهزء والسخرية والكلام الفارغ والتقليد الأعور، ولكني لم أجد إلى اليوم إلا ببغاوات تعيد منطق أوربا العقيم.

أقول العقيم، لأن العلماء من أهل أوربا لا يزالون بخير، ولا يزالون صادقين مخلصين ما بحثوا عن غير الإسلام، فإن بحثوا عن الإسلام فإنما هو الخلط والكذب وتحكيم الهوى لا العقل والمصلحة لا الحقيقة، يضعون لنا الديناميت، ثم يأتي هؤلاء المغفلون فيقولون: هاكم هذه الأحجار ابنوا بها صرح حياتكم.

إن هذه ديناميت يا مجانين!

* * *

أستغفر الله، فما أقول إن بغداد قد انفردت بهؤلاء المجدّدين المقلدين تقليد القرد (الذي يفخرون بأن نسبتهم إليه كما نفخر نحن -أبناء آدم- بنسبتنا إلى آدم النبي الكريم)، ولكن أقول: إن مثل هؤلاء موجود (وقد رأيته) في الشام ومصر، ولكن في الشام ومصر جبهات إسلامية قوية يقظة ساهرة تردّ كل سهم في كبد مرسله. في مصر «الفتح»، وما وُلد في دار «الفتح» وبسبب «الفتح» من جمعيات الشبان المسلمين والهداية، وفي الشام الجمعيات الإسلامية الكثيرة والمسلمون الغُيُر، وفيها جماعة الهداية الإسلامية، قائمون بالمرصاد لكل من يريد بالإسلام شراً، وفي الحجاز حكومة مسلمة تقيم حدود الله وتتبع سنة رسول الله ﷺ، فأين الجهات الإسلامية في بغداد؟

إنني أسأل سؤال مستخبر لا سؤال منكر. وقد سمعت بجمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية ولكني لم أرَهما، بل رأيت الرجل الذي ملأ أنفي اليوم بدخان سيكارته، ورأيت زملاءنا المدرّسين الذين لم يدروا أن الدنيا رمضان، ورأيت الطلاب الذين كادوا ينساقون مع هذا التيار الملحد، ورأيت المساجد الخالية، ورأيت البدع الفاشية... رأيت هذا كله ولم أرَ الجمعيات الإسلامية، فأين هي؟

أرجو ألاّ أُعدم الجواب[1].

* * *

(١) تجدون الجواب في ذكرياتي التي طبعتها دار المنارة.

ثورة دجلة

نشرت سنة ١٩٣٧

ازدادت دجلة يومَي الأربعاء والخميس ٣ و٤ صفر سنة ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظَرة، وغدت بغداد عرضة للغرق بين كل لحظة وأخرى، وسيق الناس كلهم للعمل على إقامة السدود، ولم تغمض في بغداد ليلة الخميس عين... وكان شيء عظيم...

كانت تجري في الوادي حالمة سكرى، غارقة في بحر من الحب والشعر، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطّرة المعسولة التي تطبعها الشمس على وجنتَيها الصافيتين كل صباح ومساء، تختطفها منها في غفلة من الكون فلا يبصرها إلا الشفق الذي يطل من نافذة الأفق يرميها بنظرة الكاشح الحاسد، فيحمرّ وجه دجلة الفتاة من الخجل وتغمض عينيها من الحياء، ثم تسرع في جريها...

وكانت تتلقى بين ذراعيها العاشِقين المدلِهين[1] كلما دجا

---

(١) أعني الأزواج الذين اجتمعوا بعقد الشرع، لا الفساق الذين اجتمعوا بعقد إبليس.

الليل وأطفئ مصباح الكون، وهم في الزوارق ذوات الأجنحة البيض التي تشبه قلوبهم في بياضها وخفقانها، فتحدب عليهم وتحفظ أسرارهم، وتمنحهم الخلوة الحلوة الآمنة، وتغمر نفوسهم بالجمال والشعر، حتى يغيبوا عن الوجود في حلم فاتن بعيد.

وكانت تغضي عن هذا النخيل العاشق، وقد تعانق كل زوجين منه وتلامسا بالشفاه واستسلما إلى الغيبة الهنيئة، وعن هذه القصور التي تفيأت ظلاله سكرى بخمرة الجمال، قد ضمت أحناءها على حياة لذة وادعة ملؤها الحب.

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته.

وكنت أذهب كل مساء إلى «جسر مود»، أنحدر إليه من الرصافة، أمشي في طريق ضيق كأني أهبط وادياً من أودية بلادي الحبيبة، ثم أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ، فأسلك شوارع الصالحية حتى أصل إلى المطار... حيث أبقى ساعة شاخصاً إلى الأفق البعيد، أتبصّر فيه طيف بلدي وأتحسس نسيمه، فأشم فيه شذا الغوطة وأنشق ريّا نَشرها العَطِر وعَرْف آسِها ونسرينها، وفُلّها وياسمينها، ونرجسها ورياحينها... حتى إذا قضيت من ذلك وطراً عدت وقد خلا الجسر، فحييت دجلة وصببت في أذنيها آلامي وأحزاني واستمنحتها الراحة والاطمئنان، ثم مضيت إلى وكري المتعزّل في الأعظمية بنفس هادئة كدجلة، مطمئنة كاطمئنانها.

* * *

وذهبت في مساء الأمس كما كنت أذهب، فإذا الأرض قد بُدِّلت غيرَ الأرض، وإذا الجسر الذي كان وادياً ننحدر إليه قد

أمسى جبلاً نتسلقه[1]، وصار أعلى من الشارع وقد كان تحته، وإذا الناس يُقبلون عليه، فأقبلت معهم وعلى وجهي من الدهشة والحيرة مثل ما على وجوههم من الروعة والفزع، ونظرت فإذا النهر الذي كان يجري في الأعماق هادئاً متطامناً حالماً ويبدو كأنه صفحة المرآة، لا تنداح عليه دائرة ولا تموج فيه موجة، قد علا وارتفع وعاد ثائراً هائجاً له هدير ودردرة، قد علاه موج كالروابي!

وإذا هو قد نسي سنّه ووقاره، وأضاع حِلمه وعلمه، ورجع شاباً مجنوناً أهوج، يقفز ويصرخ ويقرع الأرض بقدميه، ويضرب بقبضتيه القويتين المخيفتين أبنيةَ الشاطئ الآمن، ويعبث بهذه الكرات الحديدية الضخمة التي أُقيمت لتثبيت الجسر العائم والتي ترجح بالقناطير وتزن الصخور الجلاميد، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبي كرته... وإذا هو مرعب حقاً، يدخل الروع على أجلد الرجال.

وكانت الوجوه كالحة، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد، والماءُ يرتفع؛ لم يبقَ بينه وبين الشاطئ إلا شبر واحد... لقد بلغ عمق المياه خمسة وثلاثين ذراعاً وعشرين معشاراً... إنه لا يزال يرتفع... لقد صاقب الشاطئ!

إن بغداد في خطر.

* * *

---

(١) كان الجسر قائماً على عوامات يصعد مع الماء ويهبط معه، ولم تكن قد أنشئت هذه الجسور المستقرة.

وطارت كلمة الخطر على الألسنة، ففزع الشعب واهتمت الحكومة، ووُضع قانون المساعدة الإلزامية، فابتدر الناس الشاطئ واستبقوا إلى العمل، يقيمون السدود ويضعون للمجنون القيود، ولكن المجنون لا يبالي بقيد الذباب. إنه يقتل أمة منها بضربة واحدة!

إن النمر[١] يقفز في حبسه ويَثِب، لقد جن. إنه يريد أن يخرج فينبعث في الأرض؛ يريد أن يمشي إلى هذه الجنات الظليلة التي طالما أمدها بالحياة وحمل إليها النعمة، ليحمل إليها الموت!

وبدأ الصراع المهول بين النهر والإنسان، وأمسى المساء على بغداد وهي قائمة على قدم وساق، ليس فيها من يبيع أو يشتري أو يلهو أو يلعب أو يطعم أو يشرب، ليس لها إلا غاية واحدة هي النجاة من الغرق.

وكنت قد بلغت منزلي، فصعدت السطح فانحسرَت أمامي صفحة النهر وهو يتلوّى من حول الأعظمية كالأفعى، يطيف بها كالقضاء النازل، وقد استرخى عند المنحنى وتمدد على الحقول والدور التي هجرها أهلوها، فصار عرضه أكثر من ألفَي ذراع! وصار بحراً خضَمّاً، ولكنه يركض دفّاعاً يحمل في طياته الموت والغرق والخراب. وكانت حمرة الشفق تخالط الماء، فيلتهب فيبدو كأنه أتون مستعر أو كأنه جهنم الحمراء.

وبسط الليل ثوبه الأسود على الدنيا فأخفى تحته ثمانية

---

(١) اسم دجلة بالفرنسية وبالإنكليزية.

وأربعين ألف شاب، يشتغلون لينقذوا بغداد من الغرق المحقّق، ومن ورائهم أربعمئة ألف قلب تحوطهم بالرعاية والحب. واستمر الصراع والهول.

وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم في يوم القيامة، غير أن المرء في يوم القيامة يجد ما يشغله عن أمه وبنيه وصاحبته وأخيه، وهنا أم حائرة مولّهة قد ضاع منها ولدها في وسط الزحمة فهي تعدو وتصيح من غير وعي لا تدري أهو من الأحياء أم افترسه هذا النمر الجبار. وهنا بنت تفتش عن أمها، وولد ينادي أخاه، وأسرة قد هيأت متاعها ووقفت على باب الدار تنتظر الساعة الرهيبة التي يطغى فيها الماء فيدكّ دارها وما فيها ويدَعها فقيرة مسكينة مسكنها الشارع. وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون، يتسابقون إلى الخطر. وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت، والجنود يعملون في كل مكان بهِمَم الأسود.

كان الصراخ يملأ الجو: هتاف الشباب، وأنغام الجند، وصياح النساء، ونداء الأولاد... والنهر فوق ذلك كله يهدر هديره المستمر المرعب، فيكون له في هذا الليل دوي مخيف، والحركة متصلة، والشوارع ممتلئة بالناس... ولكن السلامة توالت؛ ووقف النهر عن الارتفاع، ولم يقع البَثق الذي كانوا يخشونه. وكان قد تصرّم الهزيع الأول من الليل، فأمن الناس وتفرقوا إلا قليلاً قاموا يحرسون النهر، ودخلوا بيوتهم وولجت داري أستريح، فما لبثت أن ذهبت في رقدة عميقة.

رأيت فيها المياه تنساب في كل جهة تغني أغنية الرعب،

تقتلع البيوت ثم تلقي بها إلى بعيد، وتلج في باطن الأرض ثم تقلبها بما عليها، وتصعد في الجو ثم تنزل كالبلاء المصبوب، ثم انصدع صدع عظيم وهويت في قعر الهاوية، وكان حولي مئات من النمور والفهود والأفاعي، وسمعت رعداً شديداً، ورأيت برقاً ومطراً، ثم عادت السيول تجري تدحرج آلافاً من الصخور.

ففتحت عيني. وإذا الحلم حقيقة، وإذا الصيحة في الحيّ، والقيامة قد قامت وصفارات الحراس وأبواق الجنود تصدح باستمرار، والنساء يولولن ويعدون، والأطفال تبكي وتركض في كل مكان، والرجال تصيح طالبة النجدة... وتبينتُ -وسط الضجة- الكلمةَ الرهيبة: كُسر النهر... النهر انكسر.

وتدفق سيل العرم!

إن هذا النهر الذي جاء من قمم الأناضول الشاهقة، وسلك على السهول الممرعة والصحارى المجدبة، قد تعب من سيره الطويل المضني، فجاء يستريح على هذه الحقول التي زخرفها الربيع، وأزهر فيها النارنج وفتح الورد والقرنفل والفل، وأترع نسيمها العطر، فيحيل ذلك كله إلى صحراء قاحلة. جاء يغرس في هذه الحياة الرخية السعيدة بذور اليتم والفقر والنكد.

ولكن الذنب علينا. لو أنّا أنشأنا له مأوى يستريح فيه وسريراً ينام عليه، لهجع فيه إلى أيام الصيف، ثم لخرج بالبركة واليمن إلى أراضينا وبلادنا!

* * *

تركت الدار وخرجت أسبح في هذا الخِضَمّ من الناس، أدفع النساء والشيوخ والشباب، لأصل إلى الشاطئ فأعمل عملاً. ولست أدري ماذا أعمل؟ ولست أحسن السباحة، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابي.

ولم أفكر في شيء من ذلك، لأن الإنسان لا يفكر في ساعة الخطر وإنما يعمل. فلما وقفت على الصدع هالني وأرعبني أن النمر قد أفلت من القفص، وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب، كاشراً عن أنيابه، يزمجر ويزأر ويبرق ويرعد.

إن الماء يندفع إلى العَلاء بقوة الديناميت، ثم ينزل على الحقول فيمضي مكتسحاً كل شيء في طريقه: يقتلع الأشجار الضخمة ويقذف بها كأنما هي عيدان الكبريت، وينسف البيوت كأنما هي علب من الورق، ويتدفق من كل جهة... وقد ابتلع صوته المدوّي كل ضجة وملأ الأسماع بترتيلة الموت المستمرة.

وكان لمنظره في ظلمة الليل صورة لا توصف.

وأقدم الناس، يسابقون الماء ليقيموا في وجهه السدود، ليقيدوا هذا النمر الهائج، بحميّة منقطعة النظير وحماسة نادرة المثال. وأقدمت أخوض هذه اللجة من الناس لأصل إلى هذه اللجة الطامية من الماء؛ أمشي في ظلمتين: ظلمة هذا الحشد المزدحم، وظلمة الليل البهيم. أتعرض لرهبتين: رهبة الليل وسواده، والسيل واندفاعه. أصغي إلى لحنين: لحن الروع على ألسنة الناس، ولحن الهول على لِسان النهر.

ولم أخشَ شيئاً... إنها ساعة الخطر.

بوركتِ يا ساعة الخطر! أنت لحظة الإنسانية، أنت التي تورق فيك أغصان الحب، ويُزهر فيك الإخلاص، ويعود الناس فيك إخواناً متحابّين، قد خرجوا من أطماعهم ومات في نفوسهم الحسد والبغضاء، وعاشَ فيها الحب والتضحية والإخلاص والوئام.

* * *

تقدمت إلى الأمام، ولكني لم أصل إلى شيء لأن الناس كانوا يستبقون العمل ويهرعون إلى الموت، كأن العمل غنيمة والموت وليمة... وكانوا يصرخون صراخ الحمية، ويهتفون باسم الوطن والمروءة والشجاعة.

ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع والماء يزداد اندفاعاً، فكلّت الأيدي النشطة، وجمدت الصيحات والأناشيد على الشفاه، وخامر الناس اليأس...

هنالك انتبهت، فإذا أنا أسمع النشيد الذي كنت أرتقبه وأصبو إليه. ليس نشيد الوطن والمروءة، ولكنه أجلّ وأقوى؛ النشيد الذي له قوة السيل، وعظمة البحر، وبهاء الشمس، وصلادة الصخور... النشيد الذي لا يقوم له شيء... النشيد الذي كان أجدادنا يهتفون به كلما حاقت بهم الشدة، فيدكّون به كل حصن، ويكتسحون كل عدو، ويخلصون من كل خطر... النشيد الذي يحيل الجبان بطلاً، واليأس أملاً، والطفل رجلاً.

ذلك هو نشيد الرجال والنساء والأطفال بصوت واحد يجري على قرع الطبل، فيشق الليل ويخشع له كل من يسمعه،

حتى النخيل والحقول والسحاب والنجوم، وهذا النمر الثائر.

الله أكبر - الله أكبر - لا إله إلا الله.
الله أكبر - الله أكبر - ولله الحمد!

* * *

وبدأ الصراع كرّة ثانية، وأقبلوا على العمل بهمم لا تنثني، وقلوب لا تلين، وسواعد لا تكل... وصبّ النشيد في عروقهم روح الظفر، فظفروا!

وعندما كانت الشمس تطبع أول قبلاتها على جبين الكون كان الموكب الظافر قد رجع، يحمل أجمل أزهار الرياض التي أنقذها وحماها من الغرق، يمشي فيه الجند والطلاب بصفوف منتظمة قرأت فيها أروع «شعر» الحياة كما تلوت في هذه الجماهير المنثورة في كل مكان أبلغ «نثرها»...

وكان الإشراق يكسو الوجوه وغناء النصر يرقص على الألسنة. فوقفت أحيي هذه المواكب الماجدة حتى غابت عني في طريقها إلى بغداد:

ألف تحية أيها الأبطال الذين مشوا إلى الموت لينقذوا بلادهم من الموت. ألف تحية أيها الشعب القوي العامل الجريء. ألف تحية أيها الطلاب المبرؤون الذين حملوا الفؤوس والمعاول، وأقاموا من جسومهم سداً في وجه هذا السيل الطامي. ألف تحية أيها الجنود البواسل، يا حماة الديار، يا من وطّنوا نفوسهم على

محاربة كل من يريد ببلادهم شراً، سواء لديهم أكان جباراً من جبابرة الأنس أو عفريتاً من عفاريت الجن.

لكم مني ألف تحية وألف سلام.

* * *

بغداد في يوم غازي

نُشرت سنة ١٩٣٩

أما رثاء الفقيد وبيان جلال الرزء فيه ومبلغ الحزن عليه، فتلك أمور كبرَت عن أن يحيط بها «نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخُطَبِ» ويَعُدَ منالُها عن كاتب مثلي قصير القامة واليدين، فليكن همي في أن أروي «ما رأيت وما سمعت».

ولقد رأيت عجباً وسمعت أعجب منه، وشاهدت أحوالاً ربما ظنها القراء الذين هم في غير بغداد مبالغة من نسج الخيال، ولكن الله يعلم، وأهل بغداد يشهدون، أن الذي أقوله حق كله، وأني ما زدت فيه ولكن نقصت منه، وأني لو ذهبت أستزيد فيها ما استطعت، ولا بقي للخيال بعد الذي كان مجال.

والذي رأيت أني نزلت من الأعظمية مبكّراً على عادتي، فلم أرَ على الطريق ما أنكر إلا حركة عند «البلاط» ما ألقيت لها بالاً، حتى إذا شارفت المدرسة (ومدرستنا في ظاهر بغداد، قريبة من باب المعظم) رأيت طائفة من الطلاب مجتمعين يتهامسون، ولكن الوجوه غير الوجوه، فلما أبصروني أسرعوا إليّ يسألونني عن «الحادثة»؟

فقلت وأنا خالي البال: أي حادثة؟ إني ما سمعت بعد بشيء.

قالوا: لقد شاع في البلد أن الملك...

فاضطربت وتوقعت أن أسمع عنه نبأ لا يسر. ولقد أحببت الملك غازياً منذ شهور[1] خلت حباً شديداً لم أكن أحبه من قبل مثله، وصرت أرى فيه معقد الأمل وباب الرجاء.

فلما قال التلميذ ما قال خفق قلبي، من توقع المكروه وحب الاستطلاع وروعة المفاجأة، وما يصيب المرء في العادة في موقف مثل هذا، وصحت بالولد أسأله أن ما للملك؟

وبالغت في الصياح حتى روّعته وأثرت أحزانه، فقال متعثراً يجر الحروف من فيه جراً: يقولون إنه... قد مات.

فقلت: أعوذ بالله! اسكت ويحك، إن هذا كذب فلا تنطق به.

وأسرعت إلى المدرسة والطلاب معي، وأنا أرجو وهم يرجون أن يكون الخبر كذباً. ولبث بعض الطلاب قائمين على الطريق ينتظرون مرور الملك كما يمر كل يوم... فلما بلغنا المدرسة وجدنا كل من كان فيها من مدرسين وطلاب قد سمعوا الذي سمعنا، وهم بين مصدّق ومكذّب.

ومرت ساعة ونحن على هذه الحال من القلق، نسأل كل آتٍ

(١) صنع غازي قبل موته ما أدخل محبته على كل قلب وجعله صديقاً لكل عربي.

فلا نلقى عنده جواباً، ونستخير الهاتف (التلفون) فلا نسمع منه خبراً. ثم أبصرنا علم الثكنة العسكرية التي أمامنا قد نكس، وجاءنا الأمر بتنكيس العلم وجمع الطلاب في غداة الغد للتشييع.

فعلمنا أن الناعي قد صدق، وأن الأمل قد خاب.

* * *

وخرج المدير، وهو الرجل القوي المكتمل الرجولة، ليعلن الأمر. فما تمالك نفسه أن بكى وهو ينعى لشباب «الغربية المتوسطة» سيدَ شباب العرب، وما أمسك الطلاب أنفسهم أن يصيحوا (وهم ثمانمئة شاب يُعَدّون مثال النظام) صيحة واحدة، وأن يبكوا بنحيب وعويل، وأن يمزق بعضهم ثيابه، وأن يغمى على بعض.

وما أكتم القارئ أني حسبت ذلك رياء وتصنعاً، وكرهته أول الأمر واشمأزّت منه نفسي، ولكني ما لبثت أن أيقنت أنه حق وصدق وأن منشأه هذا الحب العجيب الذي نما في قلوبهم من شهور فقط للملك الجندي، وهذا الحزن الطاغي على وفاته الفاجعة.

وخرج الطلاب بعد ذلك، وخرجت على الأثر، فما دنوت من «باب المعظّم» حتى سمعت نواح النساء ونحيبهن، ورأيت الميدان كله ممتلئاً بالناس، يتدافعون ويستبقون البلاط باكين مفجوعين.

مشهد للحزن ما أحسب أن أروع منه يكون. فخالفت

الجماهير وقصدت شارع الرشيد، فلم أبلغ «الصابونية» حتى رأيت مئات من النساء تحكي ثيابهن ومظاهرهن الغنى والحشمة، وهنّ ينشدن شعراً عامياً أو شبه شعر، ما فهمته ولكني تبينت فيه ذكر غازي وشبابه الغض وذكر الموت... وكلما قلن بيتاً لطمن وجوههن وبكين بحرقة وألم، فما رآهن أحد إلا بكى أشد بكاء.

ورأيت -من بعدُ- آلافاً من الناس، قد حملوا شاعراً عامياً فهو يقرأ لهم شعراً كله تفجّع وألم، وهم يلطمون ويضربون صدورهم أو يشيرون باللطم. فلم أطق المسير ولا الشهود، فملت إلى «الثانوية»، وكانت خالية مقفرة وعلى بابها علمان متّشحان بالسواد، فغادرتها أفتّش عن أخي أنور العطار، فما هي حتى جمعني الله به فقلت له: إن المسير في شارع الرشيد مستحيل، والصبر على رؤية هذه المواكب الباكية أشد استحالة، وحسبنا ما في نفوسنا من الألم، فهلمّ بنا إلى الدار (في الكرخ) فإنها أهدأ.

ورأى ما رأيت فسرنا نؤم الجسر. وكان اليوم عاصفاً مخيفاً والنهر مضطرباً مرعباً، كأن الطبيعة قد روّعها من النبأ ما روعنا ففقدت هي الأخرى اتزانها وهدوءها، فما ظننا والله إلا أن الجسر منقطع بنا لِمَا رأيناه من اضطرابه واهتزازه ولعب الرياح والمياه بالعوّامات التي يقوم عليها، ولكن الله سلم، فبلغنا الكرخ.

وإذا بالكرخ قد نُشرت فيه الأعلام، أعلام (السباية) السود، ودُقّت طبول المأتم، وخرج أهلوها على بكرة أبيهم، مواكب مواكب: النساء ينُحْنَ ويلطمن الوجوه، والرجال ينشدون ويضربون الصدور، وقد تعرّوا وتكشفوا فعل المتهيئ للصراع،

حتى رأيت الصدور وهي من الاحمرار كأنما هي دامية. والأطفال، يا لله ما فعل الأطفال... لقد تعروا مثل الرجال وطفقوا يضربون صدورهم، علم الله أنها ما تحمل الضرب ولا تطيقه!

وكانت المواكب في كل شارع وفي كل زقاق، فكلما تركنا واحداً منها اصطدمنا بآخر، حتى أزمعنا آخر الأمر أن نعود إلى جانب الرصافة من الجسر الآخر، فما بلغناها حتى رأينا فيها ما أنسانا فعل أهل الكرخ، وكان كل موكب يحمل صورة الملك الشاب مجللة بالسواد وينشد أشعاراً لم أحفظها، ولكني فهمت منها كثيراً، فمما فهمت مقالة قوم: الله أكبر يا عرب، غازي انفقد من داره، واهتزت أركان السما، من صدمة السياره.

وقول قوم ما معناه: قولوا لفيصل في القبر يستقبل وليده... في أشعار هذا سبيلها.

ولعل القراء لا يدركون قوتها ووزنها لأني لم أحسن كتابتها ونقلها، ولكنهم لو سمعوها من أفواه أصحابها، ورأوا بكاءهم وشاهدوا صدورهم المحمرّة، لعرفوا أي شيء هي، ولعلموا أن بغداد تعرف كيف تفرح، وكيف تغضب، وكيف تحزن!

ومن أعجب ما شاهدت فتيات المدارس، وهن يلطمن وجوهاً يؤذيها المسّ ويدميها النسيم، لا يشفقن على أنفسهن ولا يفتأن ما سرن يَبكين ويُبكين. ويا ليتني فهمت ما كن يقلن فإنه أشجى وأعجب مما كان الرجال يقولون.

وبقيت المدينة على هذه الحال إلى صباح اليوم التالي، إلى ساعة التشييع التي أعلن العجزَ عن وصفها.

فلما تم الدفن، وأودع الثرى الملكُ الشاب الذي كان يفيض قوة وحياة، وحوّمت الطيارات الوطنية تحمل شارات الحزن السود الطوال، وانطلقت المدافع تعلن انتهاء الدفن، وأيقن الناس أن المصيبة قد تمت وأن الرجاء قد امّحى، أفاقوا كمن يفيق من نومة مزعجة رأى فيها الحلم المروع فيرى الواقع أشد روعة، فأسلموا الأمر إلى الله، وصمتت هذه الألسنة التي طالما أنشدت ورثت وتفجعت، وجفت هذه الدموع التي طالما جرت وذرفت، وانفضّت هذه الجموع واجمة ما فيها من يتكلم أو ينبس، وفي القلوب نيران تتأجج وبين الأضالع اللهيب يستعر.

ولم تسكت آخر طلقة من طلقات المدافع التسع والتسعين حتى عم المدينةَ صمتٌ عميق، وغدت كأنها قبر واحد، وهو قبر غازي.



للذكرى والتاريخ

يا غازي... عليك رحمة الله!

أذيعت من محطة الإذاعة العراقية يوم مات غازي. واسألوا الباقين ممّن شهد ذلك يخبروكم أنه ما سمعها أحد إلا باكياً.

عليك رحمة الله يا غازي الحبيب[1]!

يا فخر الشباب، يا من لم يمتَّع بالشباب! يا سيد العرب، يا من روّع فقدُه العربَ! يا بدر العراق الآفل، يا أمل الشام الذاهب، يا دنيا من الفتوة والبطولة والنبل طوتها كفّ الموت... يا غازي، عليك رحمة الله.

بالأمس استصرختك وأنت أملنا وملاذنا، وأنت عوننا على الدهر الظالم والعدو الغاشم، أفأقوم اليوم لأرثيك يا أملنا ويا ملاذنا؟

---

(١) قد يظن بعض القرّاء الآن أني كنت من أشياع غازي أو كانت لي به صلة. ولا والله، ما كان لي به أو بغيره اتصال، وما رثيته هذا الرثاء إلا لأنه صنع قبل أن يموت ما جعله صديقَ كل محب للعرب وكل عدو للإنكليز.

أأقف على قبرك الطريّ مودّعاً باكياً، وقد كنتُ أقف على بابك العالي مستغيثاً ومستصرخاً؟ أأخاطبك اليوم من وراء القبر وقد كنتَ بالأمس ملء الكون حياة وقوة وشباباً؟

ليتني ما عشت حتى أرى هذا اليوم! ليت يدي ما طاوعتني حتى أكتب هذا المقال! ليتني ما بقيت حتى أرثيك يا غازي!

يا غازي: جل المصاب وما لنا فيه يدان! يا غازي: عَظُمَ الخطب وضاقت الحيلة. يا غازي: لو كان يفتدى ميت لفداك العرب بأنفسهم. يا غازي: قد فقدناك، فعليك رحمة الله!

على شبابك الكامل، على بطولتك النادرة، على أيامك الحلوة وذكرياتك الخالدة، على روحك -يا غازي- رحمة الله!

* * *

أفي عشرة أيام يدور الفلك وتتبدل الدنيا، ويستحيل عيد مولد الملك الشاب إلى مأتم الملك الشاب؟ أفي عشرة أيام تمرّ دنيا كاملة، تبدأ بيوم كان كالعيد لهذا الشعب وهو عيد ميلاد غازي، وتُختَم بهذا المصاب الذي رآه، وهو المصاب بغازي؟!

من كان يظن وهو يشهد أفراح هذا الشعب في ٢١ آذار، يوم الربيع الطلق ويوم غازي الذي كان أمرع من الربيع وأبهى، أن الفجيعة الكبرى كامنة في الغد القريب، وأن هذا الشعب سيلطم وجهه ويمزق ثوبه حزناً على غازي؟

أأحسست بالغد القريب فذهبت تستعجل القدر لتهيئ لأمتك كل شيء قبل أن تمضي، فعرضت جيشك يوم الثلاثاء لتؤكد لها

القوة والأَيْد، وفتحت السدة يوم الأربعاء لتضمن لها الحضارة والخصب، وعطفت على آلام سورية لتنشئ لها الوحدة والعزة، وأجريت الخيل يوم الجمعة لتعلّم وليدك الصغير كيف يكون فارساً قبل أوانه، كأنك شعرت أنا سنفجع فيك قبل الأوان؟

لقد كنتُ قريباً منك يوم عرض الخيل، فرأيت في عينيك وأنت تراقب ابنك معنى من معاني الغيب، ولكني ما أدركته. ومن أينَ يخطر على بالي أنك كنت تودعه وتفكر فيه كيف يفقد أباه ويجد الملك، فلا يدري ما الملك ولا يني ينادي: بابا...؟

من كان يظن أن الملك الشاب ابن الخمس والعشرين يموت؟ من كان يظن أن هذه الهبّة الكبرى إنما هي استعجال للقدر، وأن هذه الأيام العشرة إنما هي الخاتمة البارعة لتلك الحياة البليغة؟

ولكن هل تمّ كل شيء حتى تستريح يا غازي؟

لقد وعدت وفدَ العروة أن تشرفهم بلقائك، وما عهدناك أخلفت قبل اليوم وعداً. لقد كمل الجسر العظيم الذي لم ينشأ مثله في عهد الرشيد والمأمون، فأين أنت لتفتحه بيدك وتخطو فيه أول خطوة بقدمك؟ لقد وصل الخط الحديدي إلى الموصل، أفلا تفضلت فرعيته وافتتحته؟ لقد تهيأ العرب ليمشوا تحت لوائك إلى قمم المجد وذرى العظمة، فتقدم يا قائد العرب، يا مليك.

وأين قائد العرب؟ أين المليك؟

لقد مشى إلى رحمة الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

* * *

أحين اشتدت المعضلة واستحكم الأمر، ورجوناك للخَطْب لا يُرجى فيه إلا أنت؟ أحين تعلقت بك الآمال وأقبلت عليك القلوب، وغدوت حبيب الشعب المفدّى؟ أحين تمت بك الأفراح وكادت تتحقق بك المنى؟

اللهم لا اعتراض... اللهمّ لقد حرمت كل شيخ منا ابنَه، وكل فتى أخاه، وكل صبي أباه، حين أخذت سيدنا وحبيبنا وملكنا غازي.

اللهم فارزقنا الصبر، وأين منا الصبر؟

يا غازي، ارفع رأسك ساعة وانظر إلى شعبك. إنه يحار ماذا يصنع؛ فهو يسكت واجماً، ثم يثور نادباً، ثم يستفزه الألم فيقرع الطبول ويرقص رقصة اليأس.

إنه يحمل صورتك مجلَّلة بالسواد فلا يراها أحد حتى يبكي، على أنهم حملوا صورتك في الأفئدة ونقشوها على صفحات النفوس، فأنت من كل قلب حبته ومن كل عين سوادها.

اسمك آهة على كل لسان، ودمعة في كل مقلة، وخفقة في كل فؤاد، ومناحة في كل بيت عربي.

فيا غازي، عليك رحمة الله!

* * *

يا غازي، لقد لحقني اليوم طفل ما أحسبه بلغ الرابعة، فجعل يطلب مني بإلحاح ويشير بيديه، فأعطيته فلسين فألقاهما في وجهي، فزدتهما فرمى الأربعة، فتفهّمت قصده، فإذا هو

يطلب شارة سوداء كالتي أضعها في صدري ليعلن بها الحزن عليك، فدفعتها إليه وهو يذكر اسمك ويبكي.

لقد رأيت عجوزاً تنظر إلى رسمك المجلّل بالسواد وتبكي، كأنما تبكي فيك ولدها الوحيد، وهي تظن أنه ما يراها من أحد إلا الله. لقد أغمي على كثير من الطلاب والطالبات لمّا سقط عليهم الخبر الأسود. لقد احمرّت من اللطم صدورٌ وخدود يؤذيها مسّ النسيم!

يا غازي، يا أيها الفتى القوي، يا أيها الفارس الطيار، ألم تعد تستطيع أن ترفع رأسك مرة أخرى لترى ما صنع شعبك؟

لقد متّ من القضاء مرة، ولكنا متنا من الحزن ألف مرة، وسنموت من الحزن ألف مرة ولن ننساك يا غازي، مثلك لا ينسى!

إن الشام يبكي فيك اليوم كل شهيد من شهدائه. إنه كان يحبس دمعه من أجلك فلمن يحبس الدمع من بعدك؟

إن العجوز التي كانت تتلقى ابنها القتيل وهي تهتف باسمك لم يبقَ لها من تهتف باسمه من بعدك.

يا غازي، مَن لأطفال الشام، من لنسائه؟ من لضعافه الذين يسومهم القوي ألوان الخسف؟ يا غازي، من لهم وباسم من يهتفون من بعدك؟[1]

---

(١) إشارة إلى قطعة نشرتها في جريدة البلاد قبل ذلك بأيام أستغيث فيها، فكان جواب بغداد عليها مظاهرة تنتصر فيها للشام ما رأى الرائي مثلها!

يا غازي، ما تيتم لفقدك فيصل الصغير وحده ولكنّ فقدَك يتّمَ كلَّ عربي. ما تيتّم فيصل الصغير أبداً، ما تيتم؛ إن كل عربي له أب وصديق، إن له في قلب كل عربي مكاناً.

أحقيقة أنهم أودعوك بطن الثرى؟ يا غازي، إني والله ما أصدق أنك مت! يا غازي، لقد سمعت الخبر فكذبته، وانتظرت أن أراك طالعاً علينا تمرّ مرّ النسيم الناعش، مرّ الرجاء الحلو بخيال الآيس الحزين، تحيي شعبك وتسبغ عليه القوة والحياة بابتسامتك المنيرة وفتوتك الباسلة.

وطفقت أراقب الساعة أحسب الوقت فلم تمر، فشككت ولكني لم أصدّق ما قال المُرجفون. ورأيت النساء يبكين ويندبن، فبكيت والله، ولكني لم أصدق ما قال المُرجفون. وشاهدت بغداد وملء شوارعها البكاء والحسرة والندب، ولبثت أشكّ ولبثت أرجو، حتى سمعت المدافع ووعيت الصيحة فلم يبقَ شك ولم يبقَ رجاء.

لقد تحقق النبأ، فواحسرتاه... لن نراك يا غازي طالعاً علينا. لن نبصر -من بعد- موكبك ولا ابتسامتك ولا تحيتك، فيا غازي في ذمة الله وأمانه، يا غازي عليك رحمة الله!

* * *

يا أهل بغداد: مات غازي فابكوا واندبوا، فعلى مثل غازي يحلو الندب والبكاء.

يا أهل بغداد: ما فُجعتم فيه وحدكم، ولكنها فجيعة العرب

بسيد العرب. لقد كان منار رجائنا (معشرَ الشاميين) فانطفأ المنار. لقد كان لنا مناط الأمل، لقد كان لنا كل شيء... فيا أهل بغداد، كلنا في المصيبة سواء.

وعلى غازي رحمة الله والسلام.

* * *

من دمشق إلى دير الزور

نشرت سنة ١٩٣٩

إذا صحّ أن يكون في المدن سفراء فمدينة الدير سفارة عراقية في الأرض الشامية، وما دخلت الدير إلا ذكّرتني العراق، بمظهرها ومخبرها ولهجة أهلها، وما دخلت الموصل إلا ذكّرتني حلب... لذلك أثبت هذا المقال في كتاب بغداد.

إلى دير الزور[١]...

استعدوا يا سادة، فقد أزِفَ الرحيل وشُدّت الأهداج، فودّعوا الأحبة والصحابة إن كنتم تطيقون الوداع، وخذوا طريقكم إلى «المرجة»[٢] ففيها الموعد الفجر. وأسرعوا، لا يشغلكم جمال

---

(١) نُقلت إليها مدرّساً في ثانويتها سنة ١٩٣٩، إثر حادث في المدرسة في حفلة أقيمت في ذكرى مولد النبي اعتدي فيها على النبي ﷺ، فكان على يديّ نصرة الحق وخزي المعتدي.

(٢) ساحة مشهورة في دمشق يبدو أن الانطلاق إلى دير الزور كان منها يومئذ. وانظر تفصيلات هذه الحادثة التي أشارت إليها الحاشية السابقة (وكانت سبباً في نقل علي الطنطاوي إلى الدير) في الذكريات: ١٤٧/٤ (مجاهد).

الغداة ولا سِحْر السَحَر، وإن ملأ السماء والأرض والنفس خشعة وفرحة وبهاء، فحرام على ذي الأعمال أن يفتنه عنها الجمال.

ها نحن أولاء في المرجة، وها هو ذا صوت المؤذن يمشي في الفضاء مشي البرء في الأجسام والطرب في الأعصاب، فيكون لهذه الدنيا نوراً وطهراً وعطراً. وها نحن أولاء نصلّي الصبح في «جامع يَلبُغا» الذي سرق نصفَه العثمانيون فجعلوه مدرسة، كأن الأرض قد ضاقت بالمدرسة حتى ما يتسع لها إلا الجامع! ولكن اللصوص لم يكونوا حُذّاقاً ولم يستطيعوا طمس الآثار، فنسوا المئذنة لم يسرقوها فلبثت قائمة تشهد عليهم، كشهادة منارة سوق الغزل على أهل بغداد أنهم سرقوا «المسجد الجامع» الذي كان قطب الأرضِ وأكلوه، وادعوا أنهم ما رأوه[1].

وها نحن أولاء نخرج فنرى السيارة وعليها الأحمال، ولكن ما لها لا تمشي؟ ألم يأن الأوان؟ ألم يؤكدوا لنا أن الرحلة الفجر؟ لقد مضت نصف ساعة، ومضت ساعة، وملأت الشمس الدنيا وأمتع الضحى، وهي واقفة، ترقب أحد البكوات حتى يصحو وتفرك الجارية رجليه ويغتسل ويأكل ويلبس ويجيء متبختراً... فلماذا منعونا نحن المنام وألزمونا الحضور في الغلس، في برد كانون وقرّ الليل؟

وما هذه الخصومات والمعارك وهذه الألفاظ الوسخة التي يقذف بها السائق ومعاونوه في وجوه الركاب، لأنهم طالبوا بحقهم وأبوا الظلم؟ وما لشركة «نِرْن» الإنكليزية تسير سياراتها كما تسير

(١) سمعت أنهم عادوا فبنوه وسمّوه مسجد الخلفاء.

وإلى السواقي تسعى بها تحمل الحياة من بردى إلى هذه الأرض المباركة، يميد على حوافيها الحور ويرقص الصفصاف، وتنساب عروق البطيخ والشمام والقثّاء والخيار، وتضحك من حولها حقول القمح ومزارع الخضار...

هذه هي الغوطة: بستان واحد مساحته أكثر من ثلاثمئة مليون متر مربع، متصل الظلال متلاقي الأغصان، كل شبر منه ثروة وجمال وكنز لا ينفد على الإنفاق.

لقد جازت السيارة دوما، فانظروا إليها فقد كادت تختفي مناراتها كما اختفت دمشق إلا جبليها الخالدين، قريعَي الدهر، حليفَي الخلود: قبة النسر من الأموي، وهامة الصخر من قاسيون.

وهذي كروم «دوما» يضلّ البصر في رجاها[1] ويقصر عن مداها، فيها العنب الدوماني الذي سارت بذكره الركبان، فمَن لم يأكل منه لم يأكل عنباً إلا على المجاز!

ولكنكم مررتم بالغوطة وكرومها في الشتاء فدُهشتم وما رأيتم إلا حَطَبها، فكيف لو جزتم بها الربيع فشاهدتم البهيّ من زهرها، أو سلكتموها في الصيف فجنيتم الشهيّ من ثمرها؟

إذن لقلتم: لا رب إلا الله، ولا بستان إلا الغوطة!

* * *

لم يبق الآن أمامكم إلا الصحراء، ولكن هذه الصحراء كانت

---

(١) الرجا واحد الأرجاء. وقد ذهب أكثر هذه الكروم.

عقارب الساعة، لا يسبق عقرب ولا يتأخر ولا يَقِفُه شيء؟

أَكُتِبَ علينا أن نظل أبداً أهل خلف في المواعيد، وكذب في الأحاديث، وفوضى في المعيشة؛ لا نحن اتبعنا ديننا، دين الصدق والنظام، ولا نحن قلدنا الأوروبيين في فضائلهم؟ ما قلدناهم إلا في الرذائل والموبقات!

* * *

لقد دنا المسير و«رغت»[1] السيارات، فاستنجِدوا بقرائحكم لتسعفكم بالقول المحلّى واللفظ المعسول، واعتصروا العيون واستمطروها الدمع، فما يحلو بغير الدموع الوداع، وما وصفه شاعر إلا (زعم...) أنه بكى، فكأن الشعراء إذا أزمعوا وداعاً وضعوا البصل في عيونهم... وإلا فكيف تجود بالدمع عند كل طلب كأنها (حنفيّات) الحمّام أو كأنها مُقَل الحِسان؟

وخذوا مقاعدكم قبل أن يشتدّ الزحام. ولكن من أين ندخل وهذه السلال والصُّرَر والحقائب بين الأرجل ووسط الممرات؟ وما هذا الضيق في المقاعد؟ هل هي رحلة دقائق من دمشق إلى دمّر أو من مصر إلى المعادي؟

إنها رحلة يوم كامل بليله وأكثر نهاره، أفنمضيه محبوسين في هذا الصندوق مقيَّدين بالأصفاد، لا نستطيع أن نحرك يداً ولا نمد ساقاً ولا نتلفّت؟ أنقاوم الشركات الأجنبية ونحاربها بمثل هذه السيارات؟

---

(١) الرغاء للإبل.

يا قوم! إنكم بمثل هذا تجعلون الناس يترضّون عن الأجانب ويلعنون -لأجلكم- كل شيء وطني!

* * *

لقد جرت السيارة وباسم الله مجراها ومرساها، ها هي ذي تخترق شارع فؤاد الأول وتقطع شارع بغداد، أفخم شوارع دمشق وأطولها، الذي فُتح من ربع قرن ولم يُبنَ فيه إلا خمس بنايات لأن البلدية أرادت عمران دمشق، فوضعت للبناء فيه شروطاً لا يمكن معها البناء إلا إذا قامت حرب عالمية ثالثة وصار كل الشاميين لصوصاً (أي أغنياء حرب)!

لقد بلغنا جسر تورا، فودِّعوا دمشق بنظرة أودِعوها حبة القلب وقرارة اللب، فما تلقون إذا فارقتم دمشق مثل دمشق، وأين؟

أين مثل فتونها وسحرها؟ وأين مثل تقاها وطهرها؟ أين قبة تنطح النجم كقبّتها؟ أين في الأرض غوطة كغوطتها؟ أين نهر يسيل شعراً وذهباً كبَرَداها؟ أين مثل ربوتها وشاذِرْوانها ومزّتها وميزانها؟ أين في الدنيا ربيع كربيعها، وزهر كزهرها، وثمر كثمرها، وكروم ككرومها؟

تزودوا منها بالنظرات تكن لكم في طريقكم زاداً، وفي غربتكم أنساً.

* * *

هذه دوما، قصبة الغوطة، فيها خمسة وعشرون ألف ساكن

قلّ فيهم من يتفرغ للعناية بدار، لذلك ترون دورهم زَرِيّة منخفضة السقوف ضيقة الأبواب، وقلّ فيهم من يعتني بثوب أو يحرص على علم، ما لهم همّ إلاّ الزراعة فهم أقدر خلق الله عليها وأصبرهم على مكارهها، لأنهم يشتغلون لأنفسهم وذراريهم لا لـ«بك» من البكوات ولا لخواجة من الخواجات، وقلّ فيهم من لا يملك قطعة من الأرض ولو صغرت، يعيش بها ولها ويموت عنها، ليس فيهم أسرة يستعبدها المُلاك هذا الاستعباد «الحر» ويظلمها هذا الظلم «القانوني»... فينظر إليها كما ينظر إلى حميره وأبقاره ويعاملها معاملتها، فيسكنها في مثل زرائبها ويطعمها قريباً من طعامها، ولا يراها أعلى قدراً منها، يشغّلها السنة كلها تكِدّ وتشقى لتقدم له ثمن سكرة من سكراته أو ليلة (حمراء!) من ليلاته، تريق عرَق جباهها على أقدام عشيقاته وتبذل حياتها ابتغاء مرضاته، ثم لا تنجو من غضباته ونزواته!

إنها أرضهم هم وهم أصحابها، ولذلك ازدهرت وأينعت حتى صارت أجمل أرض في الوجود. فانظروا إليها من حولكم، إلى هذا البحر يموج بالأشجار، تتمايل أغصانها وتتعانق أفنانها، تتوّجها إذا جاء الربيع ألوانُ الزهر فتكون ابتسامة الزمان على فم الثرى، وتثقلها إذا حل الصيف أنواعُ الثمار، من المشمش عشرين نوعاً، حبُّه كالتفاح استدارة وبهاء لا كمشمش مصر الذي يشبه في صغره حبَّ الزيتون، ومن التفاح أربعين نوعاً، والكمّثرى عشرين نوعاً، والعنب سبعة وتسعين نوعاً معدودة عداً، والدرّاق والخوخ والجانرك والسّفَرْجَل والجوز واللوز والتين والزيتون والتوت أنواع شتّى وأشكال.

يوماً من الأيام سهولاً مُمرِعة[1]، وكان أكثرها منازل عامرة، وكانت تفيض بالخيرات وتزخر بالظلال؛ أيام الملوك الغرّ العبشميين سادة الدنيا، بني أمية الذين حملوا راية الإسلام إلى أقصى المشرق وإلى أقصى المغرب، من أطراف الصين إلى أواسط فرنسا، فنصبوها على قبة الفلك ودعموها بالعدل والنبل والفضل، فما كانوا فاتحين كالفاتحين، يغلبون بالقوة ويملكون بالسطوة فإن زالوا زالت آثارهم، ولكن كانوا مجاهدين، وكانوا بانين، وكانوا عبقريين، فجعلوا هذه البلاد كلها إسلامية عربية إلى يوم القيامة، وكان لهم الفضل على كل مسلم في هاتيك الأقطار حتى تقوم الساعة.

رحمهم الله، وغفر لهؤلاء المؤرّخين الذين حاولوا أن يتقربوا إلى أعدائهم بإطفاء هذه الشمس التي بهرت العيون، فجمعوا غبار الطرق وجعلوا ينفخونه عليها حتى تمزّقت صدورهم والشمس ساطعة لم تنطفئ. ومَنذا يطفئ نور الشمس في رأد الضحى؟

غفر الله لهم! لقد جعلوا هذه المدينة -لمّا نزلوها- سيدة المدائن، ورفعوا قدرها حتى ذلّت لها نهاوند ودانت قرطبة، وخضعت سمرقند وطأطأت لها القسطنطينية، فأضعنا نحن من بعدهم عزها.

إن الأرض تعمر أبداً وبلادنا تمشي إلى الخراب. إنكم ستمرون الليلة على المدينة التي قارعت روما يوم كانت روما عاصمة الأرض ونازعتها مجدها وسلطانها، فلا ترون في مكانها إلا قرية اسمها تدمر. أفرأيتم كيف نمشي إلى الوراء؟

---

(١) مَرَعَ المكانُ وأمرَعَ: أخصَبَ (مجاهد).

إن ديار الشام التي يسكنها اليوم بساحلها وداخلها وشمالها وجنوبها خمسة ملايين كان فيها يوماً من الأيام خمسة وعشرون مليوناً[1]، وكان في العراق مدينتان متجاورتان في كل منهما مليونان وأهل العراق كله اليوم خمسة ملايين! وإن بين هاتين المدينتين اليوم على الطريق جسراً قائماً في الفلاة، كان تحته نهر اسمه دُجَيل ملأ الشعراءُ بذكره الأسماعَ، يسقي مدينة اسمها حَرْبَى[2]، زخرت بأخبارها صحف التاريخ، فمُحيت المدينة وجفّ النهر، ولم يبق إلا جسر قائم في الفلاة! وكان في البصرة عشرة آلاف قناة فلم يبقَ فيها اليوم إلا مئة وثمانون قناة.

نعم، لقد عدنا إلى الوراء، ولكن عهد التأخر قد انقضى؛ لقد وقفت القافلة تجمع شتاتها وتعد عدتها لتمشي في طريق المجد كما مشى الأجداد. لقد عرّفتنا المصائبُ في فلسطين والمغرب ومصر والشام أن الطريق من هنا: من الشرق...

من الشرق يطلع فجر الخلاص، أما الغرب فلا يجيء منه إلا ليل الظلم وسواد الاستعمار... هذه حقيقة تدرس في المدارس الأولية، ولكن في الناس جهلاء لم يتعلموها بعد!

* * *

---

(١) هذا كلام يتناقله الناس، وقد كنت أقول به يوم كتبت هذا الفصل، ولكني تيقّنت الآن أنه غير صحيح وأن في الشام اليوم من السكان أكثر ممّا كان فيها في كل وقت مضى.

(٢) بألف مقصورة في آخرها. قال ياقوت في «معجم البلدان» إنها بُليدة في أعلى دُجَيل بين بغداد وتكريت (مجاهد).

يا إخواننا، إن هذه السفرة ستعلمكم الصبر.

إنكم ستتحدثون حتى تملّوا الحديث، وتسكتون حتى تكرهوا السكوت، وتأكلون حتى تعافوا الأكل، وتجوعون حتى تشتهوا الطعام، وتنامون حتى تشبعوا من المنام، وتستيقظون حتى تتمنوا الهجوع... وأنتم محبوسون في هذا الصندوق مصفَّدون بالأغلال. فأين هذا من رحلات الأجداد على الإبل، يستمتعون بالحرية والانطلاق والتأمل؟ تقولون إنكم اختصرتم الزمان... وماذا في اختصار الزمان إلا الإسراع إلى القبر؟

إنكم تشكون والسيارة تمشي بكم على الطريق الآهلة، وأنتم قعود تأكلون وتشربون، ففكّروا في بطل الدنيا سيف الله خالد وصحبه: كيف قطعوا هذه البادية على الإبل لا يمشون على طريق ولا يجدون ماء ولا زاداً كافياً، والعدو محيط بهم، فلما وصلوا إلى الشام لم يغتسلوا ويمدّوا أرجلهم... ولكنهم نازلوا جنود سيد الكتائب قيصر وانتزعوا منه الظفر وأخذوا منه البلاد، فبقيت خالصة لأمة محمد ﷺ، لن تغدو لغيرهم أبداً، لا للإنكليز ولو غلبوا عليها حيناً، ولا لليهود، ولا للأمريكان...[١]

أولئك هم الرجال حقاً!

* * *

وبعد، فهذي هي الدير؛ تبدو مناراتها من وراء البادية كما تبدو

---

(١) هذا ما قاله جدي منذ ثلثَي قرن، وهو أمر كان حقاً وبقي حقاً، ولو أيِسَ الآيسون (مجاهد).

منارة الميناء من وراء البحر، فحُثّ الخطى يا أيها السائق واسقِها (البنزين)، فقد ملّ السَّفرُ[1]، ونفد الصبر، واشتدّ الشوق...

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دنت الخيامُ من الخيامِ

هذه هي الدير قد وضحت، أفلا تحسّون أنكم مُقبلون على مدينة عراقية؟ أليس لمناراتها رشاقة مآذن بغداد، وإن لم يكن لها ثوبها المزركش الذي تخطر فيه وتاجها الذهبي الذي تميس تحته؟ أليس فراتها هو الفرات الذي يجري في العراق، وإن لم تُزِن كتفَيه الروابي المخضرَّة، ولم يستنقع فيه النخيل، ولم تمرح على صفحته الزوارق الشعرية، ولم يؤكل في القهوات المطلة عليه السمك المسقوف؟

هذي هي الدير، فدعوني -يا رفاق- أفارقكم لأحدث القراء «حديث الدير»... فإن فيهم من لم يسمع من قبل باسمها!

* * *

(١) السفر أي المسافرون، مثل الوفد والركب.

إلى دير الزّور[1]

من هون لأرض الدير...

والسر اللّي بيننا إيش وصّلو للغير؟
وانْ كان ما في ورق لاكتُبْ عَ جْنَاحِ الطير
وانْ كان ما في حبر بدموع عينيّا

هذا مقطع من الأغنية الشعبية التي كانت تمشي على كل لسان، تستريح إليها الآذان «هيهات يا بو الزلوف...». إنها من الفن الشعبي (الفلكلور)، إنها أغنيات لا يملكها أحد ولا يحرم منها أحد، إنها كالشوارع والساحات، إنها كالغابات والأنهار... مَن يعرف بداية جريان الأنهار؟ من يعرف كيف نبتت في الغابات

---

(١) نشر علي الطنطاوي هذه المقالة في صحيفة «الشرق الأوسط» يوم الخميس ١٩٨٤/٧/١٢ ضمن ذكرياته التي دأب على نشرها يومئذ، وأودعها في الذكريات المنشورة (وهي الحلقة ١١٢ في الجزء الرابع)، ثم اختار أن يضعها في هذا الموضع من كتاب «بغداد» أيضاً حين أصدرت دار المنارة الطبعة الجديدة منه عام ١٩٩٠، وبذلك صارت المقالة منشورة في موضعين. ولذا ترددت وأنا أفكر: هل ضمّها إلى هذا الكتاب وذاك سهواً أم قصداً؛ إذ الأصل أن لا تتكرر المقالة ذاتها في كتابين. ثم آثرت أن أدع الأمر على حاله فبقيت هنا وبقيت هناك (مجاهد).

الأشجار؟ غابات الأرز التي لم يدرك التاريخ بدايتها، الأشجار العمالقة في كليفورنيا التي سبقت إلى الوجود بني الإنسان[1]، هذه الثروة الفنية العامة: العتابا، والميجنة، والأبوذية، والنخلتين في العلالي اللتين صار بَلَحَهُما دواءً، والعطاش الذين ينادي المنادي دائماً يدعو إلى سقياهم «اسق العطاش تكرما»...

أغانينا في الشام التي انبثقت من كل نبع يتفجّر من وراء الصخرة في لحف الجبل، ثم ينحدر متقلباً في أحضانه، ثم يسبح في بركة على سفحه، ثم يهيم مع السواقي الضائعة في الأودية المسحورة، يغسل أرجل الدوح في الغاب، سهوله وسوحه، لا يعرف أحد مبتداها ولا يمكن أن يعرف أحد منتهاها.

وقد تَذيع أغانٍ حتى يُظَنّ أنها من هذا الفن الشعبي (الفلكلور) وما هي منه، كأغنية «يا مال الشام»، فشرط الفلكلور أن لا يُعرَف مؤلفه ولا ملحنه وهذه أغنية ألّفها ولحنها أبو خليل القباني.

* * *

وأنا ما جئت اليوم أتكلم عن هذا الدير الذي أُلّفت فيه وفي الأحبة من ساكنيه الأغنية التي افتتحت بها المقال، ولا عن الأديِرَة التي تحدث عنها ياقوت وأورد بعض ما قيل فيها من

---

(١) تعيش في كليفورنيا شجرة السّيكويا العملاقة، وهي أضخم الكائنات الحية على الأرض ويزيد وزنها على ألفَي طن، ويبلغ عمر بعض هذه الأشجار آلاف السنين ويصل ارتفاعها إلى أكثر من مئة متر (مجاهد)..

بارع الأشعار، يوم كان الدير مهوى أفئدة الشعراء الفساق والفتية العشّاق، لا يؤمّونه لعبادة وتبتّل، بل يؤمّونه للّهو البريء منه والمتهَم.

الدير الذي أقصده هو دير الزور؛ المحافظة السادسة في سورية بعد محافظات دمشق وحلب وحمص وحماة واللاذقية، المحافظة التي كانت أيام الفرنسيين منفى لكل مغضوب عليه من الموظفين؛ المدينة العراقية التي وُضعت في الجمهورية السورية كما أن الموصل بلدة شامية سكنت جمهورية العراق (وما في الإسلام عراق غريب عن الشام، كلهن أخوات شقيقات في الأسرة الواحدة التي هي أسرة أهل القرآن)، يشهد بذلك أبنيتها ومسالكها، وعادات أهلها وثيابهم ولهجاتهم. اذهب إلى الموصل ثم إلى حلب، هل تحس أنك قد انتقلت من بلد إلى بلد؟ وزر الدير وأخواتها المنثورات على شط الفرات، راوة وعانة إلى البوكَمال، هل بينها من فرق؟

قلت لكم إني نُقلت عقوبةً إلى الدير إثر ما كان بيني وبين نظيم الموصلي وعفلق، والمسافة على الأرض بين دمشق ودير الزور لا تقل عن المسافة بين دمشق وبغداد، ولكن السفر إلى بغداد (كما عرفتم) كان بسيارات كبيرة أُعدت لهذه الرحلة الطويلة، وكان فيها الماء البارد وفيها بعض وسائل الراحة، أما السفر من دمشق إلى الدير فكان بسيارات كالسيارات التي تنقل الناس إلى ضواحي دمشق وإلى الأقضية القريبة منها، لا استعداد فيها ولا راحة ولا سعة في المكان.

ولقد كتبت مقالات نشرتها عن هذه الرحلة فلا أُعيد ما فيها، ولو أردت إعادتها لما وصلت إليها لأنني أُملي هذه الحلقة وما عندي شيء من كتب ولا أوراق. كتبت تلك المقالات بقلم الأديب وابتغيت فيها مسايرة الفن، أما الذي أكتبه اليوم عنها فإنه وصفٌ لما وقع لا أريد منه إلا أن أذكر ما كان. وهل أستطيع ذلك؟ وأنّى لي به وأنا لا أعتمد إلا على ذاكرة لم تُبقِ منها الأيام إلا ما يبقى من الدار العامرة التي عصف بها الدهر ومشت عليها السنون، فلم يبقَ من منازلها ودورها إلا أنقاض وأطلال!

كانت السفرة إلى الدير سنة ١٩٤٠، وأذكر أن موعد السفر كان بعد صلاة الفجر. تواعدنا على أن نصليها في جامع يَلبُغا في ساحة المرجة التي كانت أكبر ساحات دمشق، هذا المسجد الكبير الذي سرق العثمانيون نصفه الشمالي فجعلوه مدرسة دَرَستُ فيها سنة ١٩١٨، وجاؤوا الآن يريدون أن يسرقوا ما بقي منه سرقة مبطنة فيبنوا بناءً عالياً، يجعلون بعضه للمسجد والباقي لما لا يأتلف مع رسالة المسجد وربما أسخط من تُبنى له المساجد. وهذا مشروع قديم عارضته مرات لمّا كنت في الشام وكان لي لسان وكان صوتي مسموعاً وكان كلامي مؤثراً، ولست أدري الآن مَن يحول بينهم وبين هذا العدوان.

صلينا الفجر في المسجد وذهبنا إلى السيارة لتمشي بنا، ولكنها مواعيدنا! وأين منها مواعيد عرقوب التي ضُرب المثل بها؟ هل عندنا موعد نفي به؟ هل تُنصَب المائدة في الوليمة في الساعة المحددة لها؟ هل يبدأ الحفل في موعده؟ هل نعمل شيئاً في وقته؟ هذه سيرتنا في أمورنا الخاصة بنا والعامة بيننا، في دورنا

وفي أسواقنا وفي سلمنا وحربنا، لولا هذا التسويف والتأجيل ولولا إخلاف المواعيد ما ضاعت منا فلسطين!

لم تتحرك بنا السيارات إلا بعد ثلاث ساعات. دخلناها فإذا هي ضيقة مقاعدها صغيرة، لا يستطيع المرء أن يمشي بينها، وقد ملؤوها على ضيقها بالأكياس وبالسلال والحقائب حتى لم يبقَ فيها مكان لإنسان.

سارت بنا إلى دوما فمررنا على الجانب الشمالي من الغوطة، يوم كان في الدنيا غوطة، يوم لم تأكلها العمارات ولم ندفنها حية تحت أساس هذا البنيان. ثم على الكروم التي كانت تمتدّ أكيالاً (كيلومترات)، فيها العنب الدوماني الذي لا نظير له في الدنيا والذي يُصنع منه «الدبس»، وهو أخو العسل ليس له ميزاته ولكن له طعمه ولذته وفيه بعض غذائه، فذهبت الآن هذه الكروم، ما أدري أي آفة أصابتها حتى أحرقتها وأماتتها.

وكنا حين نذهب إلى بغداد ننعطف يميناً إلى أبي الشامات، فذهبنا الآن قُدُماً إلى الثنايا، وفيها «ثنيّة العقاب» التي نزل منها خالد في رحلته العظيمة التي تؤلّف وحدها باباً في التاريخ العسكري في سرعة الانتقال وبراعة القيادة. ثم أخذنا طريق حمص ثم انعطفنا إلى طريق تدمر والقريتين، وكان هذا الطريق هو الذي نسلكه إلى دير الزور.

* * *

كانت هذه السفرة في الشتاء وكان شتاء بارداً، وقد طال علينا السفر وتجمّدت أعضاؤنا من شدة البرد ومن ضيق المكان

ومن قلة الحركة، ومللنا وضجرنا، ولكن لا سبيل إلى الخلاص، فقد كنا كالمصفَّدين بالأغلال لا نملك حرية ولا نستطيع حراكاً.

وأذكر أننا وصلنا إلى شفير واد صغير ممتلئ بالسيل، يهدر هدير بردى في الوادي قديماً، تصطخب أمواجه ويعلوه الزبد ويضرب ماؤه الضفتين. ولم نكن نمشي على طريق (وما كان يومئذ إلى دير الزور ولا إلى بغداد طريق معبد)، فحرنا ماذا نعمل، واختلفت آراؤنا: أننتظر حتى ينقطع السيل أم نخوضه بسيارتنا حتى نبلغ الضفة الثانية فنكمل طريقنا؟ ثم غلب رأي المغامرين (وكنت واحداً منهم) فهجمنا بالسيارة نريد أن نقطع الوادي السائل، فما كادت السيارة تتوسطه حتى وقف محركها ولم يعد يملك سائقها لها شيئاً، وصرنا كأننا في جزيرة عائمة بالماء يضرب جوانب السيارة ويكاد يدخل إلينا، بل لقد دخل فغمر أرضها ولم يعلُ عنها، فلم يبق إلا أن ننزل فنغوص في الماء وندفعها دفعاً.

وكان إلى جانبي شرطيّ من أسرة كبيرة في حي الميدان ما فتئ الطريق كله يصدّع رأسي بذكر أعماله الوطنية التي نَفَوه من أجلها إلى دير الزور ويقصُّ عليّ من أنباء بطولته وإقدامه، فلما جاء الجِدّ وكان الامتحان وأقبلنا ننزل لندفع السيارة بقي في مكانه، فقلت له: ألا تقوم معنا؟

قال: إنني مريض! وبدأ يتوجّع ويتأوّه ويستميل قلبي لأن الماء يضره، فهددته بأن يقوم وإلا ألقيناه في الماء. فتأخر ولم يتقدم وأبى أن يقوم، فقصصت قصته على الركاب وأمرتهم أن يحملوه ويلقوه في الماء، فحملوه وهو يحرك يديه ورجليه

ويحرك لسانه بسبنا وشتمنا، فألقيناه في الماء ليشتغل معنا. وهذا جزاء من يقول ولا يفعل، ويدّعي ولا يثبت، ويزعم أنه بطل ثم يتبين أنه بطّال.

عملنا أكثر من ساعة ونصف ساعة حتى أخرجنا السيارة من الوادي، ولكن ابتلت ثيابنا، ولم يكن معنا ثياب أخرى نستبدلها بها، وخفت أن يؤذيني البرد وأنا في هذه الثياب المبتلة. وكان ذلك ليلاً، فلما أضاء النهار وطلعت الشمس قلت: نقعد في الشمس لعل الثياب تجف، ولكنها كانت شمساً ضعيفة وكان شعاعها بارداً في هذه الأيام من الشتاء، فبقيت بالثياب المبتلة فأعقبَتني رثية (روماتيزم) آذتني مدة طويلة.

مررنا بتدمر ورأينا أعمدتها وآثارها الجليلات الباقيات. وتدمر مدينة مسحورة كأنها من مدن ألف ليلة وليلة، لو أن متتبعاً جمع تاريخها ودوّن أخبارها لكان من ذلك سِفْر عظيم من أسفار التاريخ.

تدمر التي كانت فيها الزبّاء... أو زنوبيا أو زينب، فلست أدري ما اسمها على التحقيق وليس لها قيد في سجل الأحوال المدنية حتى أستخرجه وأعرف اسمها الثلاثي! تدمر هذه التي تدهش الناظر إليها بعظم أعمدتها التي تشبه أعمدة بَعْلَبك وإن كانت أصغر منها بقليل، صارت يوماً من الأيام منفى لمن يغضب عليه الحكام. كانت قصوراً زاهرة فصارت سجوناً الداخلُ إليها مفقودٌ والخارج منها (ومن يخرج منها؟) مولود!

* * *

وبلغنا دير الزور. وكانت يومئذ (أي قبل ست وأربعين سنة) بلدة صغيرة ما فيها إلاّ شارع واحدة، في هذا الشارع فندق صغير نزلت فيه فبتُّ ليالي. وأنا أكره حياة الفنادق، لم أحبها قط وكنت طول عمري أهرب منها، فسألت إخواننا أن يجدوا لي أسرة تؤجّرني غرفة أعيش فيها، فقالوا بأن المسلمين لا يؤجرون غرفة في دورهم لرجل أجنبي، ولكن في البلد حياً اسمه الجبيلة فيه قوم من النصارى ربما وجدت عندهم ما تريد. واستأجروا لي غرفة عند أسرة فيها زوج وزوجة وطفلان، قوم مهذبون ذوو أخلاق أقمت عندهم قليلاً، ولكن كرهت الحي فعرضت عليهم أن أستأجر أنا داراً أختارها وأدفع أنا أجرتها وأسكنهم معي فيها، وأدفع لهم نصف نفقات الطعام والشراب على أن يقدم لي الطعام مُعَدّاً.

فقبلوا، واستأجرت داراً في جزيرة بين فرعَي الفرات يسمونها «الحويقة» (لأن الماء يحيق بها من جهتيها). وكانت داراً جميلة تدخل منها إلى بستان واسع فيه أشجار عليها الثمار، وإلى يمينك غرفتان فيهما مرافقهما يقابلهما ثلاث غرف، أي أن هذه الدار تشتمل على بيتين، فسكنت أنا في الجهة اليمنى وأسكنت الأسرة التي انتقلت معي إلى الجهة الأخرى. ولم أُصادف الزوج أبداً، أما الزوجة وأطفالها فربما كنت ألقاهم، وكنت أغدو على المدرسة صباحاً بعد أن يُعَدّ لي الطعام وتوصله الطفلة إلى باب الغرفة، فإذا رجعت وجدت غدائي مُعَدّاً على مائدة صغيرة فأكلت منه ثم دخلت إلى الغرفة الداخلية فنمت فيها، فإذا انتهت القيلولة وخرجت وجدت الطعام قد رُفِع والشاي قد حل مكانه.

بقيت أيامي كلها في دير الزور مع هذه الأسرة، لم أشكُ منها شيئاً ولم أجد منها إلا خيراً. وكان الذي يتولى أمري ويساعدني على نيل كل ما أريد هو الشيخ حسين السراج رحمة الله عليه، كان لي في دير الزور كما كان الأستاذ الشيخ بهجة الأثري في بغداد، وكما كان قبلهما الأستاذ بكر الأرفلي في سلمية. وقد لقيت في دير الزور إخوة كراماً أجلاّء وأساتذة فضلاء، منهم القاضي الشيخ عبد القادر ملاّ حويش الذي صار -من بعد- صديقاً كريماً، وكان يسمر عنده جماعة من أفاضل أهل البلد يقرأ عليهم تفسيراً له اشتغل بتأليفه مدة طويلة (وأحسب أنه طبعه)، فكانوا يسمعون التفسير ويتحدثون، وربما لعبوا الشطرنج، ولأهل الدير براعة في لعبه.

وممن عرفت فيها محمد العايش، وهو نائب دير الزور في المجلس النيابي وصار في وقت من الأوقات نائب رئيس المجلس، وكانت له منزلة بين رجال الحكم والسياسيين كما كان مثلها لبعض أمثاله من نواب الأطراف، منهم حكمت الحراكي نائب المعرة (معرّة النعمان)، وآل الحراكي هم وجوه المعرة ومقدَّموها، ومنهم آل نظام الدين: عبد الباقي نظام الدين وتوفيق نظام الدين، وأحسب أنهم من القامشلي في شمال الجزيرة، ولعل رئيس تحرير هذه الجريدة[1] منهم، ومن حوران وجبل الدروز جماعة من أمثال هؤلاء.

وممن عرفت في دير الزور الشيخ سعيد العرفي خطيب الجامع الكبير، وقد كنت لقيته في مصر لما كان هارباً من الفرنسيين

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، وهو الأستاذ عرفان نظام الدين.

ومقيماً فيها، وكان صديقاً لخالي محب الدين الخطيب وذلك سنة ١٩٢٨، وقد صار يوماً رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في دمشق، وكان متكلماً خطيباً جريئاً وله كتابات.

ومنهم تاجر كبير في الدير من آل الهنيدي، مسكنه في الحويقة التي اتخذتُ داراً فيها على يمين السالك من الجسر الصغير على فرعَي الفرات إلى الجسر الكبير العظيم على الفرع الآخر.

* * *

أما المدرسة الثانوية التي نُقلت إليها فأذكر أنها كانت قريبة من مدخل المدينة من جهة الشام، وقد مُحيت من ذهني صورتها ولم يبقَ منها إلا بقايا، كان مديرها أستاذٌ فاضل من حلب اسمه بهجت الشهبندر، وكان معنا فيها رفيق لنا في الدراسة في مكتب عنبر كان بعدي بسنة واحدة (أي أنه كان رفيقاً للأستاذ محمود مهدي الإسطنبولي الكاتب المؤلف السلفي) هو الأستاذ أحمد عبود الفتيّح، وكان بين المدرسين رجل من دمشق مهذب كريم الخلق نسيت اسمه أحسبه صار -بعد- مفتش الرسم في المدارس الرسمية في دمشق. عرض عليّ مرة أن يصوّرني، فأخذ لوحة من الخشب وأخذ أصابع الألوان وبدأ يرسم وأنا قاعد أمامه، لم يقس طول وجهي وعرضه ولم يقدّر أبعاده ولم يرسم بقلم رصاص خطوطاً تحدد ملامحه، بل أخذ أصابع الألوان وبدأ يرسم بها رأساً، فلم تكن إلا جلستان حتى جاءت الصورة بمقاييسها وألوانها مطابقة لصورة وجهي! لا أعني أنها مثل الصورة الشمسية (الفوتوغرافية) بل أعني أنها جاءت مطابقة من غير مسوّدة

ولا مقياس، وأحسب أنها لا تزال موجودة عندي في الشام... ويقول أهل الخبرة إنها صورة فنية.

لا أذكر من تلاميذي في هذه المدرسة أحداً لِقِصَر مدتي فيها، فما أقمتُ في دير الزور إلا أشهراً معدودة، إلا أنني كنت مرة أسجّل في جدة حديثاً للإذاعة وكان وزير الإعلام يومئذ فيها، وكان الوزير هو الشيخ جميل الحجيلان، فقابلته فرحّب بي وأكرمني وجعل يصفني بأنني أستاذه، فأخذت ذلك على أنه تواضع منه وتكرم وشكرته عليه. قال: لا، بل كنتَ أستاذنا حقيقة. قلت: أين ومتى؟ قال: في دير الزور سنة ١٩٤٠، ثم ذهب يقرأ عليّ بعض ما كنت أشرحه من قصائد ومقطوعات في درس الأدب العربي!

ولست أدري متى كان معالي الشيخ جميل في دير الزور ليكون طالباً في ثانويتها، ولكن الذي أدريه أن ذكر ذلك منه وهو وزير يدل على سمو في النفس وعلى كرم في الطبع.

وجاءت عطلة نصف السنة فقلت أقضيها في الشام[1]، فأعددت عدة السفر ووضعنا أمتعتنا في السيارة وهممنا بالمسير، ثم رأينا بأنه لم يبقَ لموعد الصلاة إلا قليل، وكان اليوم يوم

---

(١) أي في دمشق، و«الشام» هو الاسم الذي يطلقه أهل المملكة والخليج على بلاد الشام عامة: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، و«الشام» هي سوريا عند أهل سائر بلاد الشام (الأردن وفلسطين ولبنان)، وهي دمشق بلسان السوريين، وإذا استعملها أهل دمشق أنفسهم عنوا بها مركز المدينة أو دمشق القديمة. وأحسب أن لمصر من المعاني العامة والخاصة ما هو قريب من ذلك عند أهلها (مجاهد).

الجمعة، فاقترحنا أن تقف السيارة بباب المسجد فنصلي ثم نمتطيها ونتوكل على الله. ووافق على ذلك الركاب جميعاً، فلما دخلت المسجد جاءني الشيخ حسين السراج رحمه الله فقال: إن القوم يطلبون أن تلقي فيهم خطبة قبل أن تسافر.

وكانت باريس قد سقطت في أيدي الألمان وكانت الاضطرابات قد عادت إلى الشام، فقلت له: أنت تعلم -يا شيخ حسين- أنني كالقنبلة التي لا يمسكها أن تنطلق إلا مسمار صغير، وأخاف أن تطغى بي الحماسة فأقول ما لا يناسب المقام، فإلى أي مدى يسمح لي الموقف بالكلام؟ فضحك وقال: قل ما تشاء، فالمجال أمامك فسيح.

ألقيت خطبة من تلك الخطب النارية التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الناس، غير أنها لم تكن مكتوبة فضاعت في المئات من الخطب التي ألقيتها ثم نسيتها ونسيها الناس، وأرجو أن يبقى لي شيء من ثوابها عند الله.

لا أذكر من هذه الخطبة إلا جملة واحدة قلت فيها: لا تخافوا الفرنسيين فإن أفئدتهم هواء، وبطولتهم ادعاء، إن نارهم لا تحرق ورصاصهم لا يقتل، ولو كان فيهم خير ما وطئت عاصمتَهم نعالُ الألمان.

كنت أحسب الناس في الدير مثل إخوانهم في دمشق؛ يخرجون بالمظاهرات يصيحون فيها ويهتفون... ولم أكن أعلم أنهم مثل أهل بغداد، مظاهراتهم إعصار فيه نار، وزلازل تُدَمِّر وبراكين تنفجر! خرج الناس من المسجد يريدون أن يَصِلوا إلى

الفرنسيين فيحطموهم، وجاءت الشرطة والجند لتمسك بي لأن المستشار (الكولونيل العسكري) أمر بالقبض عليّ، ولكن هذه الأمواج من الناس الثائرين حالوا بيني وبينهم فقنعوا من الغنيمة بالإياب، واستمرت هذه المظاهرات تمشي مع السيارة... هل قلت تمشي؟ لا، بل إنها تهبُّ هبَّ العواصف وتطغى طغيان الموج العاتي، حتى بلغنا آخر البلد ومشت سياراتنا، وتركنا الناس وهم يهتفون وتصنع بهم الحماسة صنيعها.

ولما وصلنا القريتين وتدمر كان قد جاء الأمر بالهاتف لكل منهما بالقبض عليّ، ولكن ركاب السيارة -لِمَا بقي في نفوسهم من أثر الحماسة وما فيها من روح الإسلام وسلائق العرب- وقفوا بيني وبينهم حتى بلغت دمشق سالماً.

* * *

بعد أيام من وصولي إلى الشام استدعاني وزير المعارف، وكان الأستاذ محسن البرازي رحمه الله الذي عرفته في كلية الحقوق معيداً وأنا طالب فيها، ثم انتهى به الأمر أن قُتل مع حسني الزعيم. دخلت عليه فاستقبلني مرحّباً وآنسني بالكلام، ثم قال لي: كأن هواء دير الزور لم يوافقك فهل تحب أن تستريح أياماً؟

فقلت في نفسي: أتجاهل لأعرف ما الذي يريده. فقلت: لا؛ إن هواء دير الزور وافقني جداً وصحتي بحمد الله صحة حسنة.

قال: أرى أن تستريح أياماً بعد هذا السفر الطويل. قلت: لا يا

سيدي، لا أحتاج إلى راحة وسأرجع في نهاية العطلة النصفية.

قال وقد نزع عن وجهه القناع: بلا كلام فارغ... ما بدهم إياك! (أي أن المستشار الفرنسي يرفض عودتي إلى الدير)، فكان ذلك خيراً أراده الله لي.

قلت: كيف أبقى هنا بلا عمل؟ قال: نمنحك إجازة مرضية. قلت: ولكني لست مريضاً. فضحك وقال: سنختار لك مرضاً ترضاه.



وداع بغداد

نشرت سنة ١٩٣٩

الوداع يا بغداد!

يا بلد المنصور والرشيد، والنعمان وأحمد، والكرخي والجنيد، وأبي نواس والعباس، ومخارق وإسحاق، ومطيع وحماد... يا منزل القُوّاد والخلفاء، والمحدّثين والفقهاء، والزهّاد والأتقياء، والمغنين والشعراء، والمُجّان والظرفاء... يا مثابة العلم والتقى، واللهو والفسوق، والمجد والغنى، والفقر والخمول... يا دنيا فيها من كل شيء.

الوداع يا دار السلام، ويا موئل العربية، ويا قبة الإسلام!

يا بلداً أحببته قبل أن أراه، وأحببته بعدما رأيته. لقد عشت فيك زماناً مرّ كحلم النائم، صحوت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق، فلم أجد منه في يدي إلا لذع الذكرى.

وهل تخلف الأحلام -يا بلدُ- إلا الأسى والآلام؟

ولكني -على ذلك- راضٍ راض، فالوداع يا بغداد واسلمي على الزمان.

* * *

ودعتها والسيارة تشتدّ بي إلى المحطة تسلك إليها شوارع ذات بهجة وجمال، شبهتها (والمحطة غايتها) بليالي الحب كلها أنس وحلاوة، ولكن نهايتها وحشة الوحدة ومرارة الفراق. وعاينت الوداع فأيقنت أني مفارق بغداد عما قليل، وأني سأتلفّت فلا أرى رياضها ولا أرباضها، ولا أبصر دجلتها ولا نخيلها، فجرى لساني بقول الأول[1] (وإن من الأقوال ما لا تبلى جِدّته ولا يمضي زمانه):

أقولُ لصاحبي والعيسُ تَهوي	بنا بين المُنيفة فالضِّمار[2]
تمتَّعْ من شَميم عَرارِ نجدٍ	فما بعد العَشِيّة من عَرارِ
شهورٌ قد مضينَ وما شعرنا	بأنصافٍ لهُنّ ولا سَرار
فأمّا ليلُهُنّ فخيرُ ليلٍ	وأطيبُ ما يكون من النّهارِ

وجعلت أذكرُ كَم ودّعت من أحباب، وكم فارقت من منازل، وكم قطّعت قلبي قِطَعاً نثرتها في أرض الله الواسعة التي لا تحفظ ذكرى ولا ترثي لبائس. ورأيتني لا أكاد أستقر في بلد حتى تطرحني النوى في آخر، كنبتة لا تكاد ترسخ في تربة وتمد فيها جذورها حتى تُقلَع وتُنقَل إلى تربة أخرى.

ورأيت أني دخلت بغداد يوم لم يكن قد جاءها أحد من أصحابي، فلبثت فيها وحيداً مستوحشاً لا أعرف منها إلا المسجد، وما كان لمسلم أن يرى نفسه غريباً في بلد فيه مسجد

---

(١) هو قيس بن الملوّح (مجاهد).

(٢) مواضع بين اليمامة ونجد (مجاهد).

ولكنها العاطفة الضعيفة المتهافتة. فلما أِلفتها وصارت بلدي وغدا لها في قلبي مكان نُفيت عنها!

دخلنا كارهين لها فلمّا   أِلفْناها خرجنا مُكرَهينا

وفكرت في أمري: متى ألقي رحلي، ومتى أحل حقائبي؟ وهل كُتب عليّ أن أطوف أبداً في البلاد وأعيش غريباً وحيداً بعيداً عن أهلي وكتبي وصحبي؟

وهاجت في رأسي الخواطر السود وماجت، حتى لقد رأيت الشوارع الحالِيَة بالزهر صحراء مجدبة، ورأيت شعاع القمر المضيء مظلماً خابياً.

ومن طوَّفَ تطوافي وأقبل -مثلي- على بلاد ما لها في نفسه صورة ولا له فيها صديق، وفارق أهلاً إليه أحبة وصحباً عليه كراماً، ومن كانت حاله كحالي، عرف صدق مقالي!

* * *

وصفّر القطار وسار، وطفقت ألوّح بمنديلي لصديقيّ الأثيرين أنور وحسن(١)، حتى واراهما عني الظلام، فنظرت حولي فإذا أنا وحيد في العربة الفخمة، لا أنيس ولا جليس، فكَرَّ فكري راجعاً إلى بغداد.

بغداد، يا مهد الحب، يولد الحب على جسرك الذي تحرسه «العيون»، وينمو في زوارقك ذات الأجنحة البيض التي

---

(١) أنور العطار وحسن القواف.

تخفق كخفَقان قلوب راكبيها، ويشبّ في كَرخك وتحت ظلال نخيلك.

فتّشوا، كم تحت هذا الثرى من بقايا القلوب التي حطمها بسهام «العيون» هذا المخلوق الجبار، الذي وُلد على الجسر شاباً، ونما في الزورق، واكتهل في الكرخ، ثم لم يمت لأنه من أبناء الخلود؟

سلوا أرض بغداد: أعندها خبر من شهداء الغرام؟ سلوا جوّ بغداد: أين النغمات العِذاب التي عطرت نسيمه بعطر الجنة، فهزت قلوباً وهاجت عواطف، وأضحكت وأبكت وأماتت وأحيت، هل أضعت -ويحك- هذه الثروة التي لا تعوَّض؟

سلوا الجسر... يا جسر بغداد، إن ما بقي من حديثك قد ملأ كتب الأدب حتى لم يعرف الناس سوقاً للعواطف والأفكار والعِبَر أكبر من جسر بغداد، فأين سائر أخبارك؟ كم ضَمَمْت ذراعيك على عشيقين فنعما بينهما بلذة الحب! وكم تركت حبيباً ينتظر فلا يرجع بعد الانتظار إلا بالخيبة والأسى! وكم عطفت على بائس منكود وأعرضت عن منكود بائس، فأريت الأول من مشاهد الحياة ما هوّن عليه ما هو فيه وزدت الثاني بؤساً ونكداً! وكم وعيت من أسرار الحب والبغض، والفرح والحزن، والغنى والفقر، والعزة والذل، وكل ما تحتوي الحياة وتشمل النفس من ألوان؟

كم رأيت من حصاد الأدمغة وثمرات القلوب! كم مدت[1]

---

(١) من: ماد يميد.

تحت أقدام خليفة كانت تصغي له الدنيا إذا قال لأنه ينطق بلسان محمد، وقائد كانت تخضع له الأمم إذا سار لأنه يلوّح بسيف محمد!

يا جسر غازي الجديد الهائل العظيم، أعندك نبأ من ذلك الجسر الذي كان عالَماً من العوالم، والذي كان سُرَّة الدنيا وقطب رحاها؟ وكان للجِدّ إذا جدَّ الجدّ، وللهزل إذا جاز الهزل، فحوى المجدَ من أساسه وجمَعَ المتعة من أطرافها.

* * *

وهذه المنارة المنحنية الماثلة في «سوق الغزل» تنظر بعيني أمّ ثكلى... سلوها أين مسجدها الذي كان يضيق -على سعته- بالمصلين حتى تمتد الصفوف إلى الشارع ثم تتتالى حتى تبلغ النهر[1]؟

أين أولئك العلماء الذين أترعوا الدنيا علماً وملؤوا آفاق الأرض نوراً وهدى؟ أين مواكب الخلفاء حيث...

الخيل تصهلُ والفوارسُ تَدّعي والبِيضُ تلمَعُ والأسِنّةُ تُزهِرُ

ومشيهم في رحاب بيت الله...

... مشيةَ خاضع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبرُ

أين فرسان المنابر وأبطالها؟ أين جيران المحاريب وجُلاّسها؟ أين... أين...؟

---

(١) كذلك قال التاريخ.

يا أسفي! لقد سُرق المسجد وهُدم المنبر وضاع المحراب، ولم تحفظ الحجارة -يا بغداد- مآثرك ومصانعك، ولا وعت الأرض ذكريات حبك، ولا أبقى الجوّ رنّات عيدانك... أفلا حفظتها قلوبٌ أقسم أصحابها أنهم ذاكرو عهدك وأنهم مُرجعو مجدك؟

فأين مسجد بغداد الجامع يا مديرية الأوقاف؟ أين المسجد يا إدارة الآثار؟ أين المسجد يا من اتخذتم المسجد بيوتاً ودكاكين وتركتم المنارة منحنية عليه تبكي؟!

أين المدرسة النظامية يا من أقمتم على أنقاضها سوق الشورجة لتبيعوا فيه البصل والثوم، وقد كانت تباع فيها حيَوات العلماء وعُصارات عقولهم وقلوبهم؟

لا تحزني يا بغداد واصبري؛ فإن كل شيء يعود ما بقي في القلب إيمان وفي الفم لسان وفي اليد سنان.

* * *

وتلفتُّ ورائي فإذا بغداد قد اختفت وراء الأفق، وغابت مسارب الأعظمية التي تحاذي النهر، تنكشف تارة فتضيء ثم تختفي في ظلال النخيل، كشاعر منفرد متأمل أو محب متعزّل يناجي طيف الحبيب ويسامر ليالي الوصال التي تلوح له صورها. والنهر يطلع عليها مرة بصفحته البيضاء المشرقة التي تشبه أمنيّة بدت لحالم، ثم يحجبه عنها النخيل ويمحوه الظلام كما تمحو الحياة بواقعها الأحلامَ وتطمس صورَ الأماني.

وغابت شوارع الصالحية ذات الفتنة والجلال، وغابت المآذن الرشيقة وغابت القباب... وبقيت أنا والماضي. هذا الماضي الذي طالما قاسيت منه وطالما كابدت، ثم كلما أوغلت به انحداراً في أعماق نفسي ودفنته في هوة الذكرى وقلت مات، عاد حياً كاملاً تثيره نغمة وتهيجه صورة ويبعثه بيت من الشعر... فيبعث بحياته آلامي.

غابت بغداد، فسلام على بغداد.

واشهدوا أنه ما بعد دمشق بلدٌ أَحَبُّ إليّ من بغداد، ولا بعد العتابا نغمة أوقع في قلبي من الأبوذية، ولا بعد الحور شجر أجلّ في عيني من النخيل، ولا بعد بردى نهر أعزّ على نفسي من دجلة.

أستغفر الله! إلا حَرَم الله ومدينة نبيّه، فهما والله أحب البلاد إليّ، وماؤهما ألذ المياه في فمي، وشجرهما أبهى الشجر في بصري.

السلام عليك يا بغداد، وعلى ساكنيك السلام.

* * *

نوري السعيد

أذيعت في آخر سنة ١٩٥٦

أبدأ هذا الحديث بـ«الحمد لله»، لا الحمد التقليدي الذي تفتتَح به الخطب، والذي لا يعدو كلمة تقال باللسان لا ينطق بها الجنان، بل أنا أحمد الله حقيقة، أحمده من أعماق القلب على أن أرانا الفجر الصادق ليوم المجد الجديد، المجد للعرب وللمسلمين.

ولقد كنا إذا فخرنا من قبل أسكتتنا السيوف التي صدئت في الأغماد، والعزائم التي هجعت في النفوس، والقوى التي استرخت في السواعد، وكنا إذا ذكرنا الماضي العزيز كذبتنا شواهد الواقع الذليل. فضجّت السيوف في أغمادها حتى سُلّت، وثارت العزائم في نفوسنا حتى وثبت، وعادت إلى سواعدنا قواها، ورأينا نحن من أنفسنا ورأت الدنيا منا أننا أهل لماضينا، وأن إرث البطولة لم يفقد من قلوبنا، وأننا أبناء أولئك الجدود.

لم يكن ينقصنا (كما قلت لكم مرة) إلاّ السلاح، السلاح الجديد الذي قصّر آباؤنا فلم يحملوه يوم ظهر، ولم يتعلموا العلوم الجديدة التي صنعت هذا السلاح ولبثوا على ما عندهم، فسبقنا الناس بعد أن كنا نحن السابقين.

كان ينقصنا السلاح فقط، فلما صار في أيدينا منه استطاع بلد صغير مثل مصر أن يقف في وجه دولتين كانتا تُعَدّان يوماً أقوى دول الأرض، وكنا نظن أنهما لن تُغلَبا وأنه لا سبيل لنا عليهما.

ولئن تسلح العرب والمسلمون التسلّح الكامل، فليقفُنّ في وجه أهل الأرض جميعاً، وليحاربُنّ الجن والإنس والشياطين، وليَبْنُنّ بشفرات سيوف المجاهدين وعلى أساس جماجم الشهداء مجداً جديداً يَزري بالمجد التليد.

* * *

وشيء آخر يا أيها المسلمون، هو أننا لم نُغلب حتى في أشد أيام ضعفنا، لم يغلبنا المستعمرون بقوتهم ولم ينتصروا علينا بسلاحهم، ولكن كنا نحن نهدم بأيدينا مجدنا؛ كانوا يضربون بعضنا ببعض وكانوا يسلطون بعضنا على بعض!

مَن قضى على حكومة الأمير عبد القادر في الجزائر؟ وهل كان يُغلَب أو يستسلم لولا أن وجد أعداؤنا أناساً منا يعينونهم علينا؟ هل كان يُغلب لولا الخائنون؟

ومن ذهب بثورة الأمير عبد الكريم من بعد؟

ولمّا قام محمد بن عرفان في الهند وأسس الدولة الإسلامية وغلب الإنكليز والسيخ، مَن قضى على دولته إلا المسلمون الذين حركتهم دسائس المفسدين؟

والثورة السورية، من قوّضَ دعائمها؟ الفرنسيون الذين

جاؤوا من باريز أم فرق المتطوعين من الذين يسكنون سورية، والذين أطعمتهم سورية وسقتهم وآوتهم وأكرمتهم؟

ومن ضمن لإنكلترا ولفرنسا كل نصر نالته في مئة السنة الماضية؟ هل ضمن لإنكلترا النصر إلا الهنود؟ وهل ضمن لفرنسا النصر إلا المغاربة؟

ومن أخذ الشام من آل عثمان ورفع يدهم عنها حتى وضع الإنكليز والفرنسيون أيديهم عليها إلا نحن؟ نحن الذين خُدعنا بوعودهم واطمأننّا إلى عهودهم؟

كانوا يسلّطون بعضنا على بعض، وكانوا يضربون بعضنا بأيدي بعض، وها هم أولاء يلجؤون اليوم إلى هذه الخطة القديمة. يريدون أن يضربوا العرب بالعرب والمسلمين بالمسلمين، فجاؤوا بعبد الإنكليز[1]، وبإبليس السياسة العربية، بنوري السعيد، وبهذا الحلف الملعون، حلف الشياطين.

وحسبوا أنهم إذا كسبوا نوري السعيد فقد كسبوا العراق، لأن العراق -كما كانوا يظنون ويظن كثير من الناس- خاتم في إصبع نوري السعيد، فإن شاء أدخله في أصبعه وإن شاء نزعه من أصبعه... وأن الوزارة قيد إشارته إن شاء تسنّمها وإن شاء تخلّى عنها... وأنه الرجل القدير الجريء المحنّك الذي ليس له نظير!

وأنا أعرف العراق كما أعرف الشام، وأنا رجل عاش في العراق أربع سنين وأكل من خبز العراق، ولي في العراق إخوة

(١) أردت به عبد الإله، ولكن لم يمكن يومئذ التصريح باسمه.

وأصدقاء ولي في العراق تلاميذ، كانوا تلاميذي من عشرين سنة[1]، وهم اليوم من أركان العراق، فإذا تكلمت عن العراق تكلمت كلام الخبير.

إن الوزارة قيد إشارة نوري السعيد حقيقة، ونوري السعيد قدير جريء محنّك لا شك في هذا، ولكن قوة نوري السعيد ليست بمنزلته عند الشعب بل لمكانته من الإنكليز. وما أذكر أني حضرت مجلساً خلال أربع سنين عشتها في العراق وخلال زوراتي المتعاقبة للعراق وذُكر فيه نوري السعيد إلا أجمع الناس على وصفه بأنه عبد الإنكليز، ولعنوه وأعلنوا البراءة منه.

وتردده على الحكم تسع مرات إلى الآن ليس لأنه صديق الشعب، ولا لأنه المسيطر على العراقيين، بل لصلته بالإنكليز. ومواهبه كلها، وقدرته، وجرأته، وحنكته... كل ذلك مسخَّر لخدمة الإنكليز. وما قيمة المقدرة إذا لم تكن مسخَّرة للحق؟

إن إبليس أقدر -بلا شك- وأجرأ وأشد حنكة، ولكنه إبليس! وجند إبليس كلهم، من اللصوص والقتلة والمجرمين، ذوو قدرة. هل يسرق اللص ويرسم الخطط للسرقة، ويقتل القاتل ويعدّ العدة للقتل إلا وهو قدير؟ فلا قيمة للقدرة وحدها إن لم تكن معها الفضيلة.

ونوري السعيد له مزيّة الثبات على مبدئه؛ إنكليزي، إنكليزي عن عقيدة وإيمان كما يقولون، ولكن إبليس -كذلك- له مزية الثبات على المبدأ عن عقيدة وإيمان؛ إبليس إبليس، ما بدّل

---

(١) أعني من سنة ١٩٣٦.

ولا غيّر! ولكن هذا الثبات لا يسوّغ أن نرضى عنه، بل نلعنه مرتين، مرة لأنه كان شريراً ومرة لأنه ثبت على الشرّ ولم يتحول عنه ولم يَتُبْ منه.

أما حكم الله في نوري السعيد وأمثاله فهو في نص القرآن: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. صدق الله العظيم. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾. فنوري السعيد تولى الإنكليز، فهو من الإنكليز، هو المستر نوري السعيد! ويا ليته كان يواليهم موالاة الند للندّ، بل هو نعامة معهم وأسد على أمته.

أسد؟ أستغفر الله! إن الأسد لا يهاجم امرأة ولا صبياً إلا إذا اضطر إلى ذلك ليعيش وغلَبَه الجوع، ونوري (عفواً، المستر نوري) لا يستطيع أن يهاجم إلا النساء والأطفال وأولاد المدارس، ويضرب أبناء العراق برصاص العراق، ويسخّر أموال العراق لحرب شعب العراق!

لماذا؟ ليبقى في الحكم، ليبقى فيحقق الإنكليز ما يريدون.

وإني ما كنت أحب والله أن أدخل نفسي هذه المداخل، وكنت أتألم حينما أجد المحطات العربية تتبادل السباب بعد أن كانت تسب كلها اليهود. ومَن كان السبب؟ هذا الرجل الذي باع نفسه للإنكليز كما باع فاوست نفسه للشيطان.

وللعامة أمثال عجيبة، والمثل العامي يقول: لا تلوموا الذي يسب الناس بل لوموا الذي يدعو الناس إلى سبّه!

ما كنت أحب أن أسب نوري السعيد، ولكن لما تحققتُ من أنه يريد أن يثيرها في سورية شعواء مجنونة ويسلّط عليها أعداء العروبة والإسلام، ولما رأيته يضرب شعب العراق بالنار، ولمّا قرأت أسماء المعتقلين وهم إخواني وأحبائي وهم خيرة رجال العراق... لم أعد أستطيع الامتناع عن سبّ نوري السعيد.

أسبّه لأُبرِّئ العراق من ذنبه؛ إن العراق بريء من جرائم هذا الرجل ومن المؤامرات التي أعدّها. إن شعب العراق أمضى شعوب العرب، وأشدها إباء، وأوفاها للعروبة، ولكن من طبعه أن يحتمل طويلاً ثم يثور، فإذا ثار فلن يهدئه الحديد ولا البارود ولا النار.

ولقد شهدت ثورته على بكر صدقي وكيف أودى به، وقد كان بكر صدقي أرجلَ من نوري وأقوى. وشهدت ثورته على نوري يوم دبّر قتل الملك غازي، لقد كنت هناك ولي على هذه الجريمة التي دبّرها عدو الله الدلائل. وشهدت الوثبة على معاهدة بورت سميث... وها هو ذا العراق يثور، وإذا ثار العراق فقد انتهى نوري.

انتهى، انتهى هذه المرة وانتهى إلى الأبد، فلن تقوم له قائمة بعد اليوم. إنها قضية أيام فقط وتسمعون خبر انهيار هذا الصنم الذي نصبه الإنكليز. لقد تنبّه العرب ولن يعودوا إلى عبادة الأصنام ولن يضرب بعضهم بعضاً بعد اليوم[١].

* * *

(١) لقد انهار الصنم، ونسأل الله أن يعيد الصفاء بيننا كما كان.

الجمهورية العراقية

أذيعت قبل ثورة العراق بأسابيع[1]

يا جلالة الملك فيصل:

في آذار سنة ١٩٣٩ كانت سورية تخوض معركة من معاركها المتصلة في سبيل الحرية؛ تحارب العدو الغاصب، وتتلقى بصدور أبنائها رصاصَه وناره، وتقف بأجساد رجالها ونسائها وتلاميذ مدارسها أمام دباباته ومصفحاته.

كانت تناضل الفرنسيين كما يقاتل العراقُ اليوم الإنكليز، ولكن من كانت تقاتلهم سورية كانوا فرنسيين لحماً ودماً ولساناً وكانت أسماؤهم جورج وميشيل، ومن يقاتله العراق اليوم عرب الدم واللسان ولكنهم إنكليز القلب والحب، عرب المظهر وإنكليز الجوهر. قد اتخذوا لهم أسماء مستعارة يتخفون وراءها: (نوري) وفلان وفلان، وحقيقة أسمائهم إيدن وتشرشل وكلوب!

وكنت أعمل في بغداد، كنت مدرساً فيها بعيداً عن أهلي

(١) ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨، وهي الثورة التي أنهت الحكم الملكي وأدت إلى قيام الحكم الجمهوري في العراق بقيادة عبد الكريم قاسم. وقد حملت المقالة في الطبعة الأولى من الكتاب اسم «نداء لم يجد مجيباً» (مجاهد).

وبلدي، فكان يلذع فؤادي أسى أن أبيت آمناً، أتفيأ ظلال النخيل على سِيف دجلة وأَضْحى بشمس الأعظمية، وأهلي هناك يتجرعون غصص الموت ويعالجون سكرات الخوف. وما قامت قبل ذلك مظاهرة ولا كانت معمعة نضال من سنة ١٩٢٨ إلا كنت فيها، لأني كنت تلك السنين كلها رئيسَ اللجنة العليا لطلاب دمشق، فما ثَمّ حركة يتحركها الطلاب إلا كنت أنا محركها، أو كنت مشاركاً فيها، أو على علم بها.

وحاولت أن أستأذن وزارة المعارف العراقية وأعود إلى دمشق، فما تركني الفرنسيون أدخلها، فكتبت تلك المقالة التي نقلت لكم فقرات منها ونشرتها في صدر جريدة «البلاد»[(١)]، وكان لأبيك الملك غازي في قصر الزهور محطة إذاعة خاصة غير محطة الإذاعة العراقية، فما كان المساء حتى سمع الناس المقالة تُذاع من محطة القصر، وسمعوا بعدها صوت الملك يقول: لبيك، لبيك.

وراح يعمل.

وتسربت إلى الناس أخبار الخلاف بينه وبين الإنكليز، هذا الخلاف الذي تعدّدت مظاهره وتكرر حتى يئس الإنكليز من غازي. ووضعوا خطة الجريمة، جريمة قتله بحادث السيارة المصطنَع على يد نوري السعيد ويد آخر[(٢)] يعرفه أهل العراق كبيرهم وصغيرهم ممّن شهد تلك الأيام.

---

(١) عدد الخميس ٣٠ آذار سنة ١٩٣٩ ، وقد مرّت الإشارة إليها في هذا الكتاب.

(٢) المقصود به عبد الإله.

وكان شعب العراق يغلي حماسة للجهاد وحمية لنصرة سورية، ولو فُتح له الطريق لمشى إلى الشام مشياً، يشارك أهلَ الشام محنتهم ويقاسمهم مصيرهم. ولقد أقمت في العراق أربع سنين، فما رأيتها ألمّت ملمّة ببلد عربي قريب أو بعيد إلاّ أحس العراق ألمها، ولا كانت مشكلة عربية إلاّ حمل العراق همها. وإذا رأيتم العراق اليوم في عزلة فلأنّ نوري ولأن عبد إيدن (عبد الإله) هما أكرهاه عليها، وسيخرج بإذن الله منها.

وأوعز الملك غازي للحكومة أن تدع الشعب يعلن ما يبطنه من شعور النصرة لسورية، بل زاد على ذلك فأمر الحكومة فأعدّت مظاهرة يقوم بها الطلاب، فدعت طائفة من المدرّسين ذوي الألسنة والعزائم، وأكثرهم من السوريين، وكنت معهم.

ورسمنا طريق المظاهرة وأعددنا لها، وسهر الطلاب يهيّئون الأعلام ويكتبون عليها أصرح ما في اللغة من كلمات التمجيد لجهاد المجاهدين من أهل الشام والغضب على عدوان المعتدين من الفرنسيين. وأُعِدّت الأناشيد الحماسية، وأنا الذي لم يكن شاعراً قط نظم في ذلك اليوم أكثر من نشيد، منها نشيد «يا مليك العرب غازي» الذي اشتهر وردّدته الألسنة زمناً. هذا النشيد الذي نظمته وأنا غير شاعر، وزدت فلحّنته وأنا غير موسيقي، ولكن الحماسة تجعل العييّ فصيحاً والجبان بطلاً مقداماً.

وقامت مظاهرة، أشهد وقد عشت في بلد المظاهرات، وشهدت الوثبات المتصلة من سنة ١٩١٨ إلى أن جلا الفرنسيون عن الشام، وثبة الفرح واليقظة خلال أيام الحكم العربي، ووثبة

الجهاد والنضال أيام الانتداب... فما رأيت مظاهرة أكبر ولا يوماً أعظم من ذلك اليوم.

لا والله، ولقد مرت عليه هذه السنون كلها ولا أزال كأني أعيش فيه الآن.

لم تكن مظاهرة تمشي، ولم يعد لها أول ولا آخر؛ كانت تمتد من الباب الشرقي إلى باب المعظم، وقد سُدّت الطرق وامتلأت بالناس، وقام في كل مكان خطيب، وافتَنَّ الناسُ في الأهازيج والهتافات والأناشيد، وتفتحت القرائح وتفتقت الألسنة عن روائع لم يستطع مثلَها الشعراء، ولم أر يوماً مثله إلا يوم مقتل غازي، وربما أذعت وصفه في حديث آت.

يا جلالة الملك فيصل، هذا يوم من أيام بغداد، شهدته وأنا رجل كبير فكان له في نفسي هذا الأثر، ولا أزال كلما ذكرته أستمدُّ منه حماسة وقوة، فكيف بأثره في نفوس الشباب؟

هذا يوم من أيام بغداد. لقد كانت بغداد على عهد أبيك قلبَ الوحدة العربية الذي ينبض فيه دم الحياة ثم يخرج منه قوياً نظيفاً أحمر، أفترضى أن تكون بغداد على عهدك قلب الحلف الإنكليزي؟ وكانت حكومة أبيك تدعو المدرّسين ليثيروا الطلاب احتجاجاً على عدوان الفرنسيين على أهل الشام، أفترضى أن تكون حكومتك هي التي تعدو على أهل العراق؟

ولقد هتفت بأبيك أقول: يا غازي، يا غازي، أدرك أهل الشام، فقال لي أبوك: لبيك، لبيك. أفترضى أن أهتف بك: يا فيصل، أدرك أهل العراق، أنقذهم من نوري ومن عبد إيدن،

الذي ينفق أموال العراق ويسخّر سلاح العراق ليقتل شعبك شعب العراق، إرضاء لعدوّك وعدو العراق وعدوّ العرب، للإنكليز، فلا تردّ؟

يا فيصل، يا ملك العراق:

إن علماء العراق في السجون، إن في السجن الإمام العلَم الذي يفاخر به هذا القرنُ القرونَ الماضيات، الشيخ أمجد الزهاوي. إن شباب العراق في القبور. إن ثرى العراق مضرَّج بدماء أبناء العراق. لقد نال أمةَ العراق من الأذى والضُّرّ على يد نوري ما لم ينلها مثله على أيدي الإنكليز ولا على أيدي المغول.

يا فيصل، تدعوك الأيامى الثاكلات. يا فيصل، يناديك اليتامى المظلومون. يا فيصل، دعوة الحق. يا فيصل، نداء العدل. يا فيصل، صرخة الوطن والعروبة والدين. يا فيصل، المدد المدد، الغوث الغوث، لا تترك شعبك يذبحه الإنكليز بأيدي زبانية نوري السعيد.

يا فيصل:

لقد كان على هذا العرش يوماً ملك نادته أسيرة من بلاد الروم ظلمها آسروها: «وامعتصماه»، فاهتزّ لندائها هذا العرش، عرشك، وماج لها هذا الشعب، شعبك، وخرجت جيوش بغداد فلم ترجع إلا وفي ركابها المجد والظفر. أفيرضى رب هذا العرش اليوم أن تناديه الأسيرات في بغداد فلا يجيب، أسيرات لم يظلمهن رومي ولا بيزنطي، ولكن إنكليزي يلبس جلد عربي، يظلمهن ويذبح أبناءهن ويقتل رجالهن، وهن يصرخن: «وافيصلاه»!

فأين أنت يا فيصل؟ أين أنت يا ابن غازي لتسمع النداء؟ نداء الأسيرات في بغداد، نداء أخواتك وخالاتك وأمهات شعبك. فقم يا أيها المعتصم، لا لتلبّيها على الخيول البلق ولا بالجحفل اللجِب، بل لتلبيها بكلمة واحدة منك تقولها لهذا الظالم الفاجر.

قل له: دع الوزارة واخرج منها مذؤوماً مدحوراً؛ اخرج منها فما يجوز أن يحكم رجل شعباً وهو يريق دماء أبناء هذا الشعب ويبيعه للأعداء.

لو كان الأمر بتقتيل أبناء العراق يصدر باسم الملكة إليزابيث لهان علينا أن نُقتَل بأيدي عدونا، ولكل أمة في الدنيا عدو تنال منه وينال منها، ولكن هذا الأمر يصدره باسمك الرجل الذي خانك ووالى عدوَّك. فقل له الكلمة التي ننتظرها منك، من عروبتك، من هاشميتك، من ابن غازي، قل له: اخرج!

قلها -يا مولاي- قبل أن يقولها الدهر بلسان البركان المتفجر[1]. قلها، قبل أن تقولها الثورة التي تطيح بنوري. إن الثورة لا زمام لها، فإذا لم تدفعها عنك بطرد نوري طردت الثورة من العراق مَن هو أكبر من نوري، كما طردت الثورة من مصر من كان أكبر رأس في مصر: فاروق.

وهذا يا مولاي نذير، من صديق للعراق.

* * *

---

(١) لم يقلها فقالها الدهر بلسان ثورة تموز.

ثورة تموز في العراق

أذيعت يوم الثورة من محطتَي دمشق وبغداد.

ساقني القدر في مطلع شبابي إلى الصحافة فاتخذتها لي حرفة، وتنقّلت بين الصحف حتى انتهيت إلى الجريدة الوطنية الكبرى «الأيام»[1] فكنت أعمل فيها، أكتب وأصحح وأراجع.

وكنت رئيس لجان الطلبة في دمشق، وكان آخر ما أفكر فيه أو يخطر لي على بال أن أكون موظفاً، ولكنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن. وأصبحت يوماً فإذا الجريدة قد أغلقت ولجان الطلبة قد حُلّت، وإذا أنا بلا مال، وفي عنقي عيال، فاضطررت إلى الوظيفة وغدوت معلماً في المدارس الابتدائية، وكان ذلك من أكثر من ربع قرن، وكان المستشار «راجيه» هو المسيطر على المعارف، وبيني وبينه تِرات من قديم.

وكنت أفور بالحماسة وأغلي من النشاط، أكتب وأخطب وأثير الناس، وكانوا يريدونني على السكون والخنوع، فضاقوا بي وضقت بهم، وآذيتهم بقلمي ولساني وآذوني بالنقل والعقاب، حتى إذا لم يبقَ للاحتمال مجال وضاقت بي السبل فررت إلى العراق.

---

(١) لمّا عطلوها صدرت باسم «اليوم».

وأقمت في العراق سنوات أربعاً شهدت فيها الثورة على ياسين، ومقتل جعفر، ثم رأيت سقوط بكر ومصرع غازي، ثم أبصرت نهضة الفتوّة وثورة رشيد عالي، وعهد النكسة والانتقام حين عاد البلاء على أيدي مَن كانوا سادة لنا وهم عبيد الأجانب، وكيف صارت الوطنية ذنباً والإخلاص جريمة، وكيف كُرّم الخونة وشُنق الأحرار.

... ورجعت من العراق وقد حملت منه ألف ذِكرى وخلّفت فيه خمسة آلاف تلميذ، صار منهم سبعة وزراء وأربعة عشر عقيداً في الجيش، وصار منهم رؤساء استئناف وأساتذة في الجامعة، وصار منهم شعراء وكتّاب، وتركت في العراق قِطَعاً من نفسي وبقايا من حِياتي.

ولبثت على الوفاء للعراق، الذي آواني يوم ضاقت بي بلدي وعرف لي قدري يوم بخسني من كان هنا حقي؛ أحنّ أبداً إليه وأذكر أبداً أيامي فيه، ما أعرف من وفى له أكثر من وفائي، ولا من كتب عنه ممن درّس فيه مثلما كتبنا نحن الثلاثة: الزيات، وزكي مبارك، وأنا[1]، وبقيت أبداً أثني على العراق وأذكر بالخير وبالإباء وبالكرم أهله.

وكان يجادلني بعض من لم يعرف العراق من إخواننا ويقول: أما ترى العراق قد استخذى ولان حتى ربطوه بحبل الحلف، ثم خضع وخنع حتى جرّه به إلى نصر العدو وحرب الأخ شيخُ السوء نوري، وفتى الشر عبد الإله؟

(١) ولا أعرف من الشعراء من نظم فيه مثلما نظم أنور العطار.

فأقول: انتظروا. إن العراق ينام ولكنه لا يموت! انتظروا تروا كيف يفيق الأسد، فيقطع هذه الخيطان التي قيّده بها هؤلاء الصبيان.

وانتظروا، وانتظرت، فما تحرك العراق ولا أفاق.

وناديت فيصل من هذا المذياع[1]: يا فيصل، أنقذ العراق من عدوّ العراق. يا فيصل، احم نفسك ممّن قتل أباك. يا فيصل، يا فيصل... فما ردّ فيصل ولا حركته تلك الصيحة التي تحرك الصخر، وما كان يملك حركة ولا رداً.

وهتفت بشعب العراق وذكّرته ببطولاته وأمجاده وأعدت عليه ذكر أيامه، ومثل أيام العراق لا ينسى، فما سمع ولا استجاب، وترك هؤلاء النفر من الخوارج يجولون أُسداً في طرق بغداد ويتسللون كلاباً في شوارع لندن، حتى قطعوا حبل الأخوّة بيننا وبين العراق ليربطوه بذنَب الإنكليز!

فتفرق الشمل الجميع، وتعادى الأشقّاء المتحابون، ومشينا نحن في طريق ومشى العراق في طريق، بعدما كان الطريق واحداً والغاية واحدة، وكُتب على إذاعة بغداد (بغداد العربية، بلد الرشيد والمأمون) أن تحمل قسطاً من عبء إسرائيل، فتعاونها على سبّنا وشتمنا والافتراء علينا.

وصار العراق (الرسمي) يعادي الوحدة، ولقد كان العراق أول من هتف للوحدة وتحمس لها وجعلها درساً في المدارس،

---

(١) أثبتّ هذه المقالة في هذا الكتاب للذكرى والتاريخ.

وكان من أكبر أمانيّ تلاميذنا في بغداد -إذا قرؤوا قصة الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية- أن يكون العراق «بيه مونت» أو بروسيا، فيحقق الوحدة بيديه معاً، يد الشعب بعواطفه ورغباته ويد الحكومة بسياستها وسلاحها. فكيف تبدلت الحال حتى صار ذنبُنا عند حكام العراق أننا خطونا الخطوة الأولى في طريق الوحدة؟

وكنت أَعُدّ نفسي من أهل العراق لأني أكلت خبز العراق ورأيت خير العراق واتخذته بلدي بعد بلدي، فما كان بعد دمشق والحرمين مدينة أحبّ إليّ من بغداد، ولا كان بعد العتابا نغم أحلى في أذني من الأبوذية، ولا كان بعد بردى نهر أجمل في عيني من دجلة، ولا بعد الحور شجر أمتع لبصري من النخيل، ولا كان بعد «الصفيحة»[1] في أصباح الربوة أكلة أشهى إليّ من السمك المسقوف في أماسي الشط في بغداد.

وما أضمرت لبغداد غير الحب ولا أكننت لأهلها إلاّ الوفاء، فكان جزائي من حكّام بغداد أن مُنعت من دخول العراق سنة ١٩٥٤، ولم أدخله إلا بشفاعة رجال في بغداد من رجال العلم والأدب لا يستطيع أحدٌ من الحاكمين أن يردّ لهم شفاعة.

ومُنعت كرّةً أخرى سنة ١٩٥٧، وما كان ذلك لأني كنت ضالعاً مع المعارضين، ولا لأني كنت خصماً في السياسة للحاكمين، فما لي في السياسة ناقة ولا جمل، ولقد كنت في العراق (كما أنا الآن في الشام) أعيش معتزلاً لا أحضر حفلة

(١) رقائق من العجين مكسوّة باللحم المفروم المتبّل بالبصل والتوابل، تُشوى في الفرن، وهي أكلة شامية مشهورة (مجاهد).

قط ولا أدخل حزباً ولا هيئة، ولا أمشي إلى هناء ولا عزاء ولا استقبال ولا وداع، ولا أزور إلا نفراً تجمعهم في العد الأصابع. بل لقد مُنعت أول مرة لأني كتبت أن الرئاسة لا تكون إلا بالشورى ولا تتم إلا بالبيعة، ومُنعت بعدُ لأني كنت أول من أعلن قصة مصرع غازي وأنه لم يَمُت ولكن قتله الشقي غير السعيد نوري وابن عمه عبد الإله.

مُنعت من دخول بغداد وأنا أعد بغداد بلدي، وأوذيَ فيها إخواني من أبناء مصر والشام، وما في الشام ومصر إلا من يرحّب بالعراقي إن رأوه عندهم ويفتح له قلبه وداره.

تفرق الشمل الجميع، وتعادى الإخوة المتحابون، فكيف تبدلت الحال؟ أي عين أصابت العرب في إخائهم واتفاقهم حتى ردّتهم أعداء مختلفين؟ وماذا أقول لمَن يلومني في الدفاع عن العراق وأبناء العراق؟

لقد عاد اللائمون يقولون وأنا لا أجد في الدفاع عن العراق كلمة أقولها.

ماذا دهى العراق؟ وكيف يقيم على المذلة والضيم؟ كيف يدع نفراً من عبيد الإنكليز يقيّدونه ويسوقونه ليكون يوم الروع الفداء للإنكليز؟ كيف؟ كيف يا ناس؟

أترون العراق قد خلا من الأحرار؟ أيخلو من الأُسْد العرينُ؟ أم لقد أخاف العراقَ أنّ الطغاة نشروا الجواسيس في الناس حتى لا يأمن المرءُ جارَه في الحارة، ولا تلميذَه في الصف، ولا زميلَه في الديوان... لأن الطغاة جعلوا الجار جاسوساً على جاره،

والتلميذ جاسوساً على أستاذه، والزميل جاسوساً على زميله، واستعملوا لذلك الرجال والنساء والأولاد؟

وأنهم يأخذون الناس من بيوتهم سرقة وغدراً، بلا محاكمة ولا ذنب، إلى حيث لا يدري أحد؟ وأنهم كمّوا الأفواه وقيّدوا الأقلام، وعدّوا على الناس الألفاظ وأحصوا عليهم الأنفاس؟

كيف خاف العراق، وعهدي بمن في العراق أنهم لا يخافون؟

وانتظرت الوثبة، حتى إذا طال الانتظار ولم أجد شيئاً يئست أو كدت، وأوشكت أن أكفر بالعراق وشعب العراق. حتى كان يوم الإثنين الماضي، فرنّ الهاتف في ساعة ما أَلِفْتُ أن يكلمني فيها أحد، فقمت مذعوراً وقلت: من هذا السّمِج الغليظ الذي يزعجني عن منامي؟

وفتحت فإذا أنا بقائل يلقي إليّ كلمة واحدة ويضع السماعة. قال: افتح رادّ بغداد فوراً.

قلت: قبحه الله وقبح رادّ بغداد! ما لي ولرادّ بغداد؟ أما سمعته البارحة وهو يذيع في آخر الأخبار نبأ سفر النفر الأشرار إلى إسطنبول؟ أعنده أسوأ من هذا الخبر ليتحفنا به من الصباح، أم هي سلسلة جديدة من الشتائم والأكاذيب؟

وفتحت كارهاً فسمعت كلمة أطارت النوم من عينيّ وجعلتني أفرك أذني. ماذا أسمع؟ ألأنا لا أزال نائماً وهذه بقية حلم من الأحلام، أم أنا في يقظة؟ ماذا أسمع: «إذاعة الجمهورية العراقية»؟!

وعدت أتأمل موضع الإبرة لعلي غلطت أو لعلها محطة سرية، ولكني لم أغلط وليست محطة سرية، إنها محطة بغداد!

ماذا وقع بين عشية وصباحها؟ أمن نصف الليل إلى مطلع الشمس يتبدّل كل شيء، وينهار العرش وتقوم الجمهورية؟

ولم أدرِ ماذا أفعل، وأحسست أني أشتهي أن أصرخ أو أن أقفز، أني أريد أن أوقظ الناس كلهم لأزفّ إليهم البشرى، ولكني تثبّتُّ وقلت: يا ولد انتظر، لعلها مزحة أو لعلّ مذيعاً أنطقت الحماسةُ لسانَه بها فقُبض عليه. ولبثت أتسمّع فلا أجد إلا ما يؤكد الخبر، إنه الانقلاب.

وكانت فرحة الناس جميعاً، وكنت أحق بها لأني واحد من أهل العراق، وقد حسبنا أننا خسرنا العراق فردّه علينا هؤلاء النفر الأباة الأحرار.

فيا أيها السادة الأحرار: لكم الشكر، لكم الشكر لأنكم رددتم عليّ بلدي الثاني وجعلتموني أرفع رأسي بعودة الاتحاد بعد أن أضناه طول الانقسام، لقد أعدتم لي ثقتي بالعراق وشعب العراق.

إنها أمة واحدة، نصّ الله على وحدتها على لسان جبريل فلن تزيلها قوة بشر، ولن تهدمها ألوان على المصوَّر ولا خشبات عند الحدود.

لقد عدنا أمة واحدة، فـ«الحمد لله».

* * *

المحتويات

من آثار المؤلف

١ـ أبو بكر الصديق	١٩٣٥
٢ـ قصص من التاريخ	١٩٥٧
٣ـ رجال من التاريخ	١٩٥٨
٤ـ صور وخواطر	١٩٥٨
٥ـ قصص من الحياة	١٩٥٩
٦ـ في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
٧ـ دمشق	١٩٥٩
٨ـ أخبار عمر	١٩٥٩
٩ـ مقالات في كلمات	١٩٥٩
١٠ـ من نفحات الحرم	١٩٦٠
١١ـ سلسلة حكايات من التاريخ (١ ـ ٧)	١٩٦٠
١٢ـ هتاف المجد	١٩٦٠
١٣ـ من حديث النفس	١٩٦٠
١٤ـ الجامع الأموي	١٩٦٠
١٥ـ في أندونيسيا	١٩٦٠
١٦ـ فصول إسلامية	١٩٦٠
١٧ـ صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠
١٨ـ فكر ومباحث	١٩٦٠

١٩ـ مع الناس	١٩٦٠
٢٠ـ بغداد: مشاهدات وذكريات	١٩٦٠
٢١ـ سلسلة أعلام التاريخ (١ ـ ٥)	١٩٦٠
٢٢ـ تعريف عام بدين الإسلام	١٩٧٠
٢٣ـ فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٥
٢٤ـ ذكريات علي الطنطاوي (١ ـ ٨)	١٩٨٥ ـ ١٩٨٩
٢٥ـ مقالات في كلمات (المجموعة الثانية)	٢٠٠٠
٢٦ـ فتاوى علي الطنطاوي ج٢	٢٠٠١
٢٧ـ فصول اجتماعية	٢٠٠٢
٢٨ـ سيد رجال التاريخ (محمد ﷺ)	٢٠٠٢

* * *